محمد عبد المنعم خفاجي

فصول في الدين والأدب

مطبعة العهد الجديد
لصاحبها : كامل مصباح

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذه فصول مختلفة كتبتها فى مناسبات متفاوتة ، وتناولت فيها أطرافا من البحوث والدراسات الإسلامية والأدبية ، ثم شاء الله أن تجمع فى هذا الكتاب ، وأن أقدمها لقراء العربية وأدبائها ؛ ناطقة بمفاخر من تراثنا الإسلامى والعربى القديم والحديث ، متناولة ألوانا من الآراء والأفكار فى شتى مسائل الدين والأدب والنقد .

وإنى لأقدمها فى استحياء إلى القارىء الكريم ، معتزا بثقته ، منوها بعطفه ورعايته ، سائلا لى وله من الله المثوبة والتوفيق والسداد .

وما التوفيق إلا بالله ؟

المؤلف

المعجزة الخـالدة

انبثق النور ، وائتلق الفجر ، وبزغت للإنسانية الحائرة شمس الحرية والعزة والإسلام ، فى أعقاب يوم الهجرة الخالد المجيد .

فقد رفع محمد ـ صلوات الله عليه ـ بهجرته شعلة الإسلام وضاءة منيرة هادية ، فانتصرت شريعة الله والحق والهدى على الوثنية والجود والطغيان ، وارتفعت منارة التحرير تهدى الضال ، وترشد الحائر ، وتوقظ البشرية من سباتها العميق ، وتؤذن بميـــلاد عصر جديد ، ينهى عهود الإقطاع والظلام ويسير بالناس إلى رحاب واسعة من النور والنهضة والبعث والمدنية ، وانبعثت من قباب مسجد قباء ، الذى أسسه محمد على التقوى ، ومن أروقة المسجد النبوى فى المدينة ، أعظم فلسفة إنسانية عرفها التاريخ ، ورددتها الأجيال . . فلسفة لم يكن للحياة عهد بها ، فلسفة القوة والسلام والإخاء :

القوة التى تحارب الضعف فى جميع مظاهره ، وتعاف التقليد والطغيان ، وتحالف الحرية ، وتحمل المسئولية ، وترعى الأمانة ، وتوفى بالعهد ، وتؤدى الحقوق ، وتهدف إلى أنبل ما فى الحياة من مثل وشعائر وآداب ، وتمشى فى النور مرهوبة محبوبة ، عزيزة منيعة .

والسلام الذى لا يعرف الاعتداء ، ويعمل جاهدا على نفى الخوف من الأرض ، وينتظم العالم كله فى وحدة قوية تسندها عقيدة نقية طاهرة .

والإخاء المبنى على دعامة متينة من المحبة والتعاون والمساواة ، والذى وضع محمد أصوله بعد الهجرة : بمؤاخاته بين الأنصار والمهاجرين ، وبدعوته إلى التعاطف والأخوة بين الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، والقوى والضعيف ، والحاكم والمحكوم ؛ الجميع عباد الله ، أصبحوا فى الإسلام

بنعمة الله إخوانا ، وقد امتد هـذا الإخاء ، فشمل الشعوب والأجناس والعناصر ، حتى أناب الرسول عنه على المدينة بلالا الفارسى ، وأسندت إلى مهران الفارسى ولاية اليمن ، وعاتب الله رسوله فى عمار وسلمان الفارسى وصهيب الرومى ، وأذن عمر لجماعة من الموالى قبل سادات قريش ، وعاد الناس بالإسلام إخوانا فى الإنسانية ، مما يتفق وعالمية الرسالة المحمدية ؛ التى هى العماد الأول لـكل وحدة .

وبعد أسابيع من هجرة محمد ـ صلوات الله عليه ـ انطلق المؤذن يدعو من فوق شرفات المسجد النبوى : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، اشهد أن محمـــدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله . ثم دعا محمد إلى الصلاة الجامعة ، صلاة الجمعة ، مظهرا لوحدة المسلمين الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية ، وأعلن وحدة الأمة ، وميلاد الدولة الإسلامية ، فى وثيقته السياسية البارعة ، التى حدد فيها موقفه من يهود المدينة ، والتى تعتبر من أهم المعاهدات السياسية فى الإسلام ؛ وجاء فيها : « المؤمنون والمسلمون من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، أمة واحدة من الناس ، وهم موالى بعض دون الناس ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، ولا تجار قريش ولا من نصرها » ، وقرر الرسول حرمة المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعا لأهلها ، فلا يراق فيها دم ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال .

وهكذا علت كلمة الله والإسلام ، فعز المسلمون بعد ذل ، ولم يمض غير قليل حتى أصبحوا حكام العالم ، وساسة الدنيا ، وناشرى الحرية والحضارة والديمقراطية فى الأرض جميعا .

هذه النتائج الجليلة ، والآثار الخطيرة ترشد إلى أن الهجرة معجزة الله على رسوله، وخاتم أنبيائه ، محمد بن عبدالله، مما بعث عمر على أن يفتتح بها التاريخ الإسلامي .

إن الهجرة بحق حادث فذ فى حياة العالم، وبدء تحول كبير فى تاريخ الشعوب ، ونهاية لكفاح الأجيال فى التحرر من الخوف والعوز والجهل والإقطاع والوحشية ، وإيذان بانبثاق فجر السلام والمساواة والشورى والعدالة على الأرض كافة .

ولأنها معجزة من صنع الله جعلها الله نصرا منه ، وآية على رسالة محمد وصدق نبوته ، قال : « إلا تنصروه فقد نصره الله » .

فهى بحق معجزة إلهية للرسول العربى، وليست حادثا متميزا يحدث بين الحين والحين، ليست مشابهة لهجرة الأنبياء والرسل من قبل، ولا لهجرة الزعماء والمفكرين والمصلحين، لأنه لم يكتب لهجرة أحد من الآثار والنتائج الخالدة الخطيرة الباقية على وجه الزمان ، ما كتب لهجرة محمد بن عبد الله .

ومن دلائل معجزة الهجرة : نجاة الرسول من الحصار الدقيق الذى فرض على داره ليلة الهجرة ، ونجاته من القتل، وماسبق الهجرة من محالفات سياسية وعسكرية عقدها الرسول مع أهل المدينة ، وكان مظهرها بيعة العقبة الأولى والثانية ، ثم نجاة الرسول من طلب قريش وفتاكها وفرسانها ونجاته كذلك فى الغار وقد وقف على بابه المشركون ، يقول فريق : ندخل الغار ، ويقول فريق : لا ندخله، وأبو بكر فى داخله يقول : إن أحدهم لو نظر إلى قدميه لرآنا، وإنى لست أخاف الموت ، فأنا رجل واحد ، ولكنى أخاف عليك يارسول الله ، فإنك قتلت هلكت الأمة،وإن تصب اليوم ذهب دين الله ، وينطلق صوت الرسول مجيبا لأبى بكر : لاتحزن إن الله معنا ، وماظنك باثنين الله ثالثهما .

ومن تمام المعجزة أن عجز سراقة عن القبض على محمد وصاحبه أو الفتك بهما، وقد جعلت قريش لمن يأتى بهما سالمين أو متوليين الدية كاملة، وقد كان سراقة منهما قاب قوسين أو أدنى، حتى قال سراقة فيما بعد: لقد شعرت عندئذ أن قد قدر أن تفوز قضية محمد، وأخذ سراقة يهتف: أنا سراقة انظرونى أكلمكم، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه؛ والتفت محمد وأبو بكر إليه، فاقترب سراقة منهما، وطلب إلى محمد أن يكتب له كتابا يكون آية بينه وبينه، وهكذا فى لحظة واحدة نرى العدو ينقلب صديقا، والمحارب يعود مسالما. وفى هذه اللحظة الرهيبة التى يمشى محمد فيها فى الصحراء مهاجرا فارا بدينه إلى الله، اللحظة التى ينقطع فيها كل أمل حتى الأمل فى النجاة، يقبل محمد على سراقة ويبشره بأن سيأتى عليه يوم يلبس فيه سوار كسرى، ولم يمض أكثر من ستة عشر عاما، حتى كان سراقة فى المدائن يلبس سوار عاهل أعظم دولة عرفها التاريخ، بعد أن كان الجيش الإسلامى قد قضى عليها وعلى أكبر معقل للوثنية فى العالم، ولم يلبث بعد ذلك غير قليل حتى قضى على نفوذ دولة عظمى كانت قد ألبست المسيحية ثوب الوثنية، وصبت على العالم نارا من الطغيان والاستبداد، وهى امبراطورية الروم.

وهكذا صدقت نبوءة محمد، وتمت المعجزة، ودخل المدينة ظافرا منصورا، فى يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول والثامن والعشرين من يونيو عام ٦٢٢ م، واصبح محمد الرسول إماما وزعيما، وعاش هاديا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وأخذ المسلمون يذكرون أياما عصيبة ملؤها الكفاح والعذاب والتضحيات، أياما فتن فيها المسلمون وعذب فيها الرسول وعرض عليه الجاه والملك والسلطان فأبى، وقال لعمه: والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر

فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، وقال للمشركين: ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ، فإن تقبلوا فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوا على أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم وهو خير الحاكمين .

وأى حظ هذا الذى ناله المسلمون بالإسلام ، وأى حظ يمكن أن ينالوه إذا عملوا بحقيقة الإسلام ! إنه كما قال الرسول الأعظم : « حظ الدنيا والآخرة » ، وكفى بذلك حظا عند الله والناس .

الإسلام

يضع أصول العدالة الاجتماعية بين الناس

— ١ —

بعث محمد صلوات الله عليه إلى الناس كافة ، ومعه رسالة تضىء ظلمات الحياة ، وشريعة تقضى على الأغلال والعبودية . . وبين يديه دستور خالد يهدى إلى النور والحق والحرية والمساوة والعدالة والإخاء .

ولقد حرر الإسلام وكتابه الحكيم ورسوله الكريم المستضعفين فى الأرض ، ومحا الاستعباد السياسى والاجتماعى ، وقررمسئولية الحاكم وأنه خادم الشعب وأن لا طاعة له على أحد إذا خرج عن طاعة الله ، وأن أول واجب عليه حماية دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ، وألغى الألقاب ونظام الطبقات الجائر ، وهدم الفروق الواسعة الظالمة بين الناس ، فكلهم لآدم ، وآدم من تراب ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح . وحرم الترف والفساد والاستغلال والاحتكار وأكل أموال الناس بالباطل ، وجعل لكل فقير حقاً فى بيت المال ، فإن لم يكن فى بيت مال المسلمين مايسد حاجات الفقراء ، لحقوقهم يجب أن تؤخذ من أموال

الأغنياء ، التى كره الله كنزها ، وأنذر من يكنزها لإنفاقها فى غير مرضاة الله بعذاب شديد : «والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نارجهنم ، فتكوى بهاجباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » . وفرض الإسلام الخراج والجزية وزكاة الأموال لينفق منها على المساكين والفقراء ، ودعا إلى الورع والزهد فى مال الناس ، وإلى ترك الإسراف فى التملك ، لأنه مدعاة للترف والهلاك ، والخروج عن حدود الفضيلة والصفة والدين ، وأعان وحمى مبدأ تكافؤ الفرص أمام الناس جميعاً .

— ٢ —

كل هذه المبادىء الكريمة تنبئنا برأى الإسلام فى الملكية :

فهو لا يعترف بملكية اقتطعها الحاكم من مال الأمة ومنحها لمن يشاء دون حساب . ولا يعترف بملكية آلت إلى صاحبها نهباً واستغلالا للنفوذ ، أو سرقة خفية من أملاك الدولة ، أو تحت ضغط الحاجة الملحة المصنوعة ، ولا يعترف بملكية ملكها صاحبها بمال جمعه بشتى الوسائل الغير المشروعة ، دون ان يؤدى منه حقوق الله والفقراء وزكاة المال .

وكل ملكية لا يعترف بها الإسلام يجب مصادرتها وضمها إلى بيت المال . . ومن باب أولى يجوز ردها إلى الدولة عن طريق الشراء ، ليعاد توزيعها على الفقراء توزيعاً عادلا . والفقراء هنا ليسوا عدداً قليلا حتى لا يحسب لهم حساب ، وإنما هم الأغلبية العظمى من الشعب ، إن لم يكونوا الشعب كله ، ممن لا يجدون الغذاء والكساء وثمن الدواء .

ولقد أباح الإسلام مصادرة الأموال التى جمعها أصحابها من دماء الناس ظلما وبهتانا ، ومبدأ المصادرة تقرر فى الإسلام ، فهذا عمر بن الخطاب قد صادر أموال كثير من ولاته على الأقاليم : كعمرو بن العاص وأبى هريرة والنعمان بن عدى وعامله على اليمن وعلى مكة والكوفة والشام . ولقد كان خلفاء المسلمين وولاتهم وعمالهم يتعففون عن مال الدولة، لا يمسونه ولا يقربونه، فضلا عن أن يتملكوا أرض المسلمين ، وكان رسول الله يحاسب ولاته حسابا عسيرا يسألهم : من أين لكم هذا ؟ وولى مرة رجلا على أموال الزكاة، فلما رجع حاسبه ، فقال الرجل : هذا لكم وهذا أهدى إلى، فقال الرسول الكريم: ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله، فيقول : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى إليه أم لا ؟

وهذا عمر بن عبد العزيز لما ولى خلافة المسلمين ، نزل عن أملاكه التى انتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعى ، ومزق كتب الإقطاعات بالضياع والنواحى ، وأبطل قطائع أهله وهم أولاد الخلفاء من بنى أمية، وضمها إلى بيت المال ، ومزق ما معهم من وثائق بملكيتها . . وكان أبوه عبد العزيز والى مصر للخليفة عبد الملك بن مروان ، فأهداه الخليفة أرض حلوان إقطاعا ، فلما ولى ابنه عمر بن عبد العزيز الخلافة قدم مصرى عليه يطالبه برد أرضه التى أخذها أبوه منه ظلماً فى حلوان ، فقال عمر : تعال نحتكم إلى قاض من قضاة المسلمين ليحكم بيننا بما أنزل الله، فإن لى فيها شركاء إخوة وأخوات، لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض ، وقام معه إلى القاضى فقعد الخليفة بين يديه وتكلم بحجته ، وتكلم المصرى ، فقضى القاضى للمصرى على الخليفة ، فقال عمر بن عبد العزيز : قد أنفق عليها ألف ألف درهم، فقال القاضى : لقد أكلتم من غلتها بقدر هذا ، فاطمأنت نفس عمر ، وقال : وهل القضاء

إلا هذا ؟ تا لله لو قضيت لى ما وليت لى عملا .

وهناك كثير من الملكيات قد امتلكت من الفلاحين الفقراء المدينين بطريق المزايدة ، وهو ملك فيه إثم وشبهة ، ولقد كان على بن أبى طالب وهو خليفة المسلمين ينهى عماله أن يبيعوا حاجيات الفلاح وأدوات زراعته ، وما يعيش عليه هو وأولاده من ثروة ، لسداد ما عليه من دين أو خراج .

— ٣ —

هذا حديث الملكيات التى يجب أن تصادر فى رأى الإسلام ، أما الملكيات الكبيرة الأخرى التى قد تتجوز فيقول قائلنا : إنها ملكت بطرق مشروعة لا دخل فيها للاستغلال ، ولا لمجاملة الأقوياء على حساب الضعفاء ، فإن ردها إلى الدولة لتوزعها على الشعب ، وإن لم يكن واجباً لكنه جائز بحكم الدين ، فإن الله تعالى قد كره أن تكون الأموال ومصادر الثروة فى أيدى طبقة خاصة من الشعب ، وهم الأغنياء وحدهم دون الفقراء ، أفلا تنظر إلى قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . فنظام الثراء الفاحش والفقر الشديد لا يقره الإسلام ، شريعة المدنية المهذبة والإنسانية الرفيعة . . إن الإسلام لا يبيح إثراء أفراد بإفقار أمة ، ولا إسراف طائفة فى التملك بإشقاء مجتمع بأسره ، بل إنه يجيز الحجر على الأقوياء حتى لا يسرفوا فى تملك الأرض ، فهذا عمر بن الخطاب يحجر على أعلام قريش من المهاجرين ، حتى لا يخرجوا إلى البلاد المفتوحة يمتلكون أرضها دون الناس ، وكان يقول « إلا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا » . .

ويؤثر عن جابر بن عبد الله حـــديث ينص بصراحة تامة على أن مالك الأرض إما أن يزرعها بنفسه ، وإما أن يتنازل عنها ولو بالهبة لغيره من الناس ، قال جابر : كان لرجال منا فضل أرض فقالوا نؤجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: « من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه » أى ليزرعها بنفسه أو ليتنازل عنها بالهبة لأخيه المسلم ، ولا يعطها إياه مؤاجرة ، لأن ذلك مظهر للتعاون التام الواجب بين المسلمين .

— ٤ —

إن الإسلام يقر مبدأ تحديد الملكية ، ليعيش المجتمع كافة بنعمة الله إخوانا ، وليتعاون الفقراء والأغنياء على خير الأمة وسعادتها ومجدها ، ولتتقارب الطبقات ، وتزول الفروق الواسعة بين الناس ، ويمحى من بيننا الفقر والجوع والعرى ، وليشعر الفلاح والعامل الزراعى بأنهما كغيرهما من الناس ، لهما الكرامة والحرية والحياة الطيبة الرغيدة ، وان الحكومة التى تقوم على شئون الشعب ، تحرص على توزيع العدالة الاجتماعية بين المواطنين كافة دون تمييز أو استثناء . وما أصدق ما يقول الرسول الكريم: أيما أهل عرصة ـ أى محلة ـ أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى . .

---

(١) ولعل ذلك كان بدء هجرة المسلمين إلى المدينة

ماضى الاسلام

اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين ، اللهم فاشهد أن المسلمين الأولين قد أدوا الرسالة وبلغوا الأمانة ، وكتبوا لماضى الإسلام مجدا لن تزول معالمه أو يفنى صداه ، وإن جهله الجاهلون من أبناء الإسلام اليوم .

اللهم فاشهد وانت خير الشاهدين ، أن عقبة وصل بجيشه الظافر إلى المحيط الأطلسى غربا ، ولم يرده شىء عن نشر راية الإسلام إلا البحر ، وأن قتيبة ابن مسلم غزا بجيشه الظافر شرقا البلاد حتى دخل الهند ، وأن أبطالا من المسلمين أذنوا بدعوة الإسلام فى الصين ، وأن أبطالا آخرين حملوه إلى جاوة وجزر الهند الشرقية ، ثم شرق افريقيا فأواسطها لجنوبيها وغربيها .

اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين ، أن أبطالا ميامين من العرب المسلمين دخلوا جزر البحر الأبيض المتوسط : كريت وقبرص وصقلية ورودس وسواها ، وأذنوا فيها بدعوة الإسلام ، وبنوا المدارس والمساجد والجامعات ، وأعزوا العلم ، وهيئوا للإنسان كل أسباب النهضة .

وهل ننسى ما فعله طارق بن زياد وموسى بن نصير ، فاتحا الأندلس وناشرا كلمة الإسلام ورسالته فيها . وهل ننسى عبد الرحمن الغافقى ، وقد سار بجيش لجب إلى وادى اللوار فى فرنسا ، وتقدم حتى مدينة تور ، ونازل الفرنسيين وهزمهم ، لولا الحظ الآفل الذى وقف سدا منيعا أمامه ، حين بدأت المعركة حول بواتيه وتور يوم الجمعة ٧ شعبان ١١٤ هـ - ٢ من أكتوبر ٧٣٢ م ، فهزم الجيش ، وقتل الغافقى وانسحب من نجا من المعركة من المسلمين إلى ماوراء جبال البرانس ، وكانت هذه الهزيمة بخداع شارل

مارتل الجرمانى الكارولنجى المتعصب ، مقدمة للمعارك التى استمرت فى أسبانيا ثمانية قرون وانتهت بطرد المسلمين منها ، ومحو جميع معالم الحضارة من مدنها ، مما يقول فيه نيتشه : حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك من الإسلام ، لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة ، مدنية الأندلس المغربية ، ولماذا ؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة ، ومن غرائز شريفة ، نعم من غرائز رجال وأى رجال إن تلك المدينة الإسلامية لم تنكر الحياة بل أجابتها بالإيجاب ، وفتحت لها صدرها ؛ ولقد قاتل الصليبيون تلك المدنية بعد ذلك ، وكان أولى بهم أن يسجدوا لها على التراب ويعبدوها ؛ وما مدنيتنا فى هذا القرن التاسع عشر إلا فقيرة وانية بجانب مدنية الإسلام فى ذلك الوقت .

إن هزيمة الغافقى كانت شهادة ناطقة للإسلام والمسلمين ، وكانت صفحة مجيدة من سجل ماضى الإسلام المشرق ، وفيها يقول المسيو كلودفارير الفرنسى ، الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس : حدثت فاجعة كانت من أشأم الفجائع التى انقضت على الإنسانية فى القرون الوسطى ، وكان من نتائجها أن غمر العالم مدة ثمانية قرون طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ، هذه الفاجعة هى الانتصار البغيض الذى ناله على مقربة من بلدة بواتيه قريبا من تور - أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين ، تحت لواء الغافقى عام ٧٣٢ م - ١١٤ هـ ، فى ذلك اليوم المشئوم تقهقرت المدنية إلى الوراء ثمانية قرون ، ويكفى المرء أن يطوف فى حدائق الأندلس أو بين آثار مدنها فى اشبيلية وقرطبة وغرناطة وطليطلة ، ليشاهد والألم الغريب آخذ منه ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمرانى الفلسفى السلمى المتسامح - لأن

الإسلام مجموعة كل هـذا ـ فخلصها من الأهاويل والدمار والخراب الذى وقعت فيه غاليا القديمةوسواها ، فى حين كان العالم الإسلامى من نهرالوادى الكبير غربا إلى نهر السند فى قلب آسيا يزدهر فى ظل الإسلام .

اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين ، أن قتيبة بن مسلم الباهلى قـد ساح تحت راية الإسلام بجيشه فى الأرض ، ففتح بخارى وسمرقند والصغد ، و تعمق فى بلاد الهند حتى وصل مدينة كاشغر ، وهى أدنى مدن الصين . ولمـا دخل سمرقند سجد شكرا لله و بنى مسجدا فيهاعام ٧١٤ م ، ليكون منارة للإسلام ، ثم حطم الأوثان والأصنام المنصوبة فيها وألقاها فى النار . وبعث قتيبة رسالة إلى امبراطور الصين « بوامغ جونغ » (٧١٣ ﻫ - ٧٥٥ م) يدعوه فيها إلى الإسلام وذلك عام ٩٦ ﻫ - ٧١٥ م .

إن النور الذى انبثق من جزيرة العرب على يد محمد بن عبد الله قد أضاء العالم كله خلال قرن ، أو يزيد على قرن بقليل ، وإن رسالة محمد بن عبدالله قد دعت إلى العلم والمثل الرفيعة والشورى والديمقراطية ، والأخذ بأسباب الحضارة ، وقد حاربت الوحشية والجاهلية والاستبداد والطغيان فى العالم كله ، وقد فشلت الحروب الصليبية المدمرة المخربة فى زعزعة كيان الإسلام فى الشرق ، وإن كانت البربرية المسيحية قد أبادت الحضارة الإسلامية ومعالم النهضة التى شادها المسلمون فى صقلية وجنوب إيطاليا ، ثم أبادت كل ذلك عام ٨٩٧ ﻫ -١٤٥٣ م حين انقضت على المدن الإسلامية فدمرتها ، وأجلت المسلمين عن الأندلس ، وقتلت وعذبت وشردت واضطهدت الملايين وأحرقت ملايين الـكتب ، وألقت بمثلها فى البحر .

ولـكن النـكبات الهوج التى منى بها الإسلام والمسلمون لم تضعف

روح الإسلام ولم تزعزع من كيانه ولا من الثقة فيه فى قلوب الناس كافة .

إن تخريب الفاطميين وإحراقهم لمدينة الفسطاط عام ٥٦٤ هـ بما فيها من مساجد وجامعات ومدارس ومكتبات وكتب تعد بالملايين ، ثم تخريب التتار لبغداد مركز الحضارة العالمى فى هذه العصور عام ٦٥٦ هـ ، ثم سقوط الأندلس عام ٨٩٧ هـ ، كل أولئك لم يضعف الإسلام ولم يزعزع من إيمان المسلمين .

هذا هو ماضى الإسلام المشرق وأى ماض هو ؟ ألم ينتصر الإسلام فى حربه لعصور الإقطاع والوحشية والطغيان ؟ ألم يؤثل الإسلام للحضارة منارا رفيعا فى قرطبة وغرناطة والقيروان والفسطاط ودمشق والبصرة والكوفة ومكة والمدينة وبغداد وبخارى وسواها من عواصم الإسلام الكبرى ؟ ألم يحرر الإسلام العبيد ويرفع من شأن المستضعفين فى الأرض؟ إلى غير ذلك من جلائل الأعمال .

هذا هو ماضينا المجيد ، لكن الغرب المادى الجاهل المسلح المتعصب ضد الإسلام حارب الإسلام زورا وبهتانا ، نسب كل فضائل الإسلام له وجنى الثمار التى غرسها المسلمون فى شتى النواحى فلم يكشف أمريكا إلا العرب الذين قادوا سفن كولمبس ولم يكشف طريق رأس الرجاء الصالح إلا العرب الذين كانوا ملاحى أسطول فاسكورى جاما ولم يهتد الغرب إلى تراث الإغريق العقلى إلا بمجهود العرب ، وبذلك كشف الغرب ماضيه وأخذ ينقب عنه ، ولم يهتد الغرب إلى أصول الحضارة وإنما أخذها من المسلمين الذين كانوا حملة ألوية الحضارة الإنسانية .

واستدار الزمن دورته فحارب الغرب الإسلام فى كل ميدان ، وانتصر

على المسلمين لجهلهم وغرورهم وبعدهم عن روح الإسلام ، ووقف اللنبى فى القدس بعد الحرب العالمية الأولى يقول : الآن انتهت الحروب الصليبية .!
ومن قبل وقف كرومر فى مصر يهاجم الإسلام ، ويهدد الثقافة الإسلامية ، ويعلن الحرب على كل ماهو إسلامى ، ويتنبأ بسيادة الثقافة الغربية والمتعلمين على أسلوبها فى مصر ، ويزرى بالثقافة الإسلامية ويقول :

إن الإسلام ناجح كعقيدة ولكنه فاشل كنظام اجتماعى ، ثم يقول : إن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوربية لا يصلح لحكم مصر ، وإن المستقبل الوزارى فى مصر سيكون للمصريين الآخذين بحظ من التربية الأوربية البحتة (١) . ثم عملت جيوش الاستعمار الغربى على محو الصبغة العربية الإسلامية لشعوب شمال افريقيا وشرق افريقيا ووسطها ، فأخذت فرنسا تقتل الملايين من أهل شمال افريقيا المطالبين بالحرية والاستقلال ، وتآمرت بريطانيا وأمريكا مع اسرائيل على عرب فلسطين فنهبوا بلادهم وسلبوها للأفاقين من اليهود ، وخلق الاستعمار طبقة من المتفرنجين الجاهلين الذين يعبدون الغرب ويكفرون بالشرق وماضيه ، قالوا : إن الغرب علمنا فكرة الحرية الشخصية وفكرة الدستور وفكرة تحرير المرأة وفكرة الآخذ من العلوم الحديثة وفكرة الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ، وهم فى ذلك جاهلون ، فلتلك فكرة الحرية الشخصية وتحرير المرأة والآخذ من كل العلوم بنصيب إلا أثرا لمبادىء الاسلام ، وفكرة الدستور والحياة النيابية نجد الإسلام ومبادئه دعوة إليها ، وقد طبقها بعض الحكام المسلمين وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون ، بل إن أول ملك من ملوك بنى عباد فى

---

(١) كتاب عباس الثانى للورد كرومر ، ص٦٧

اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى وضع لشعبه حكومة نيابية برلمانية على أحدث النظم العالمية الحديثة (١) . أما فكرة النظر إلى الإسلام على أنه دين كهنوت وابعاد علمائه والمثقفين ثقافة إسلامية محضة عن شئون الحكم ، وتحكيم القانون الفرنسى وحده فى حياتنا . فذلك لا يزيد على كونه نتيجة لتخطيط كرومر الاستعمارى الداهية فى مصر منذ نصف قرن من الزمان .

لابد أن يدرك أبناء الإسلام أن دينهم دين حى خالد ، قاد الإنسانية إلى شاطىء العزة والحرية ، والسلام ، وسيقودها من جديد مرة أخرى إلى حياة أسمى وأفضل مما بلغته .

إن عيب المسلمين فى تخاذلهم وتفكك وحدتهم . . وفى قيام اتحاد إسلامى قوى بين الدول العربية حيلولة بين المسلمين وبين الذلة والشقاء والتهاوى تحت أقدام الاستعمار .

إن تخاذل المسلمين أدى إلى ضياع الأندلس ، ثم ضياع فلسطين ، وأدى إلى عدم تفكير المسلمين مرة أخرى فى أن يبلغوا رسالة الإسلام إلى العالم كافة

ونحن نقول : إن العالم الاسلامى يجب أن ينهض من جديد ليصل حاضر الاسلام المرتقب بماضيه العزيز المجيد الخالد ، وما ذلك على الله بعزيز .

ويقول الاستاذ محمد ناجى من مقالة له بعنوان : « اتجاهات الإسلام » : اندفعت الأسرة الإسلامية الجديدة ، وسرعان ما تحولت من أسرة دينية إلى وحدة سياسية ، اندفعت غربا فقتحت الشام ، ومصر ، وشمال أفريقيا ،

---

(١) راجع كتاب المعجب فى أخبار المغرب لابن سعيد ، وكتابنا « قصة الأدب فى الأندلس » وهو تحت الطبع .

وتخطت جبل طارق وفتحت الأندلس ، واعتزم موسى بن نصير أن يدور حول البحر الأبيض حتى يصل الشام ، فخافه الوليد بن عبدالملك واستدعاه ، ووقفت المخافر الثلاثة الإسلامية تطل على أوربا : طليطلة فى الاندلس ، وصقلية وجنوب إيطاليا ، وقد دانت للعرب ، ثم الشام ، وامتدت الأسرة شرقا فدانت لها فارس والهند وإيران وأفغانستان ، ووصلت شمالا للقوقاز وشرقا حتى شملت مقاطعة نيان فى جنوب الصين ، ونزلت حتى الملايو ، ذلك ما يذكره التاريخ بيقين ، ولكن المسلمين المغامرين نزلوا البحر من مراكز ثلاثة ليعمروا جزائر البحر فى العالم أجمع :

١ — المركز الأول : الشام . وقد امتد حتى أمريكا الجنوبية والمهجر .

٢ — المركز الثانى . حضرموت . حيث أظهر العرب جلدا ومغامرة فى البحر فنزلوا إلى شرق أفريقيا وكونوا ممالك مسلمة فى مدغشقر وجزائر القمر وزنجبار ودخلوا أفريقيا فكونوا سلطنة كبيرة « سلطنة رابح » التى عرفنا عنها الكثير من دوائر المعارف الفرنسية ومن حربها ضد المستعمرين. فنزل الإسلام فتخطى زمبيزى ، ووصل إلى جنوب أفريقيا ونيسالاند ، وقد انتشرت فيها المساجد ومدارس تحفيظ القرآن ، واتجه الحضارة لجزائر المحيط الهندى كلديف وملاديف وسرانديب .

٣ — ونزل من المركز الثالث فى الملايو أمم إسلامية احتلت جاوة وسومطرة وبورنيو وسليبز والفلبين وانتشرت فى جزر المحيط الهادى أجمع ووصلت حتى بورت داروين فى استراليا .

ذلك يوم الإسلام الأمجد . لم يكن فى العالم كله أمة تقارن نفسها بالأمة الإسلامية . فقد كانت أوربا فى دياجير ظلمات العصور الوسطى، ولم تكتشف أمريكا .. وظلت الاسرة الإسلامية وحيدة فريدة ممتازة فى العالم .

وتلا ذلك اليوم الأغر ليل بهيم حالك تدهورت فيه المقاييس فى الأمة الاسلامية ، وتقسمت وتمزقت ودخل فى الحكام غرور متاع الدنيا فقامت دولة الحمدانيين ، وبنى بويه ، والسلجوقيين ، والأيوبيين والأدارسة ، وانتزعت الأندلس من الإسلام . وكانت أهم هذه الأقسام أثرا على الإسلام دولة الفاطميين فى مصر وإنشاء الأزهر الشريف . . : وظن بعض المؤرخين أنه أنشىء ليقوم كعبة للشيعية يصرف بها المسلمون عن كعبتهم فى مكة ، والواقع أنه كان اتجاها جديدا فى الإسلام يرجع به المؤمنون إلى الحال الثقافية الواجبة للاسلام ولهذا أجرى العزيز بالله الارزاق على المجاورين فيه من كافة أنحاء العالم الإسلامى .

ويئست الحكمة الإسلامية آخر الأمر من الشرق الإسلامى فتخطته إلى القسطنطينية تبحث عن مكان آخر تنتشر فيه ، فتفتحت أعين أوربا بمدظلمة ، وأخذ لوثر وكلفن والهيجونوت يعترضون ويصلحون من شأن الدين ،وأخذ كوبرنيكاس وجاليليلو يعترضون على الأفكار القديمة ويصلحون من نظريات الجغرافيا ، وأخذ الأوربيون يضربون فى البحر فكشفت أمريكا ، ودار مجلان حول العالم وقامت الثورة الفرنسية وقامت الحركة الصناعية الكبرى فى أوربا ، وأصبحت أوربا وكل شبر فيها ينم عن جهد وتفكير فصارت مخضرة متصنعة متحضرة متمدينة .

وانتقلت العدوى إلى الشرق فى أوائل القرن الثامن عشر والتاسع عشر، فأخذ التجديد شكل حركة دينية إصلاحية فى الشرق على يدى الأفغانى ومحمد

عبده : ونهضة فكرية كبرى تقابل النهضة الفكرية الأوربية وهكذا.. ثم قامت حركة التحرير فأخذ بها الإمام الشوكانى فى اليمن ، والسيد أحمد خان فى الهند ، ويعقوب بك فى الصين والشيخ شامل فى القوقاز ، ومدحت باشا فى بلاد الترك ، والشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى مصر ، وعبد القادر الجزائرى فى الجزائر ..وكانت أهم هذه الاتجاهات الحديثة حركة الافغانى العقلية الذى كان ينادى بشماره : لا أمه بغير أخلاق ، ولا أخلاق بغير عقيدة ، ولا عقيدة بغير فهم ، وكان من الاتجاه الثانى حركة السنوسى فى ليبيا فأنشا الزوايا فى الصحراء ليصلح من نفوس المسلمين أولا ليعدهم ليومهم الثانى ، أو يوم البعث ، وفكر جمال الدين الأفغانى أن حركة المهدى فى السودان قد تنتشر فتكون جامعة إسلامية جديدة ولم يكن المهدى الوحيد الذى قام بغية الإصلاح ، فقد قام أكثر من واحد فى بلاد المغرب ، وظلت الفكرة متأصلة فى العراق وإيران .

المادية تحارب روح التدين فى الإنسان

— ١ —

المادية قديمة فى العالم ، تنكر وجود الله ، ولا تعترف بالرسالات والأنبياء ، وتدعو إلى التحرر من كل الصلات الروحية التى تربط الإنسان بالكون والوجود ؛ وهى أخطر المذاهب على فكرة التدين ، وفطرة الإيمان فى النفس البشرية :

وقد تجددت المادية فى العصر الحديث فى الشيوعية الماركسية، التى احتضنت المادية وآمنت بها ، ودعت إلى حرية الدعوة اللادينية وعززتها .. ومن أسس الفلسفة المادية الماركسيه الشيوعية كما فسرها زعماؤها مايلى :

١ — المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق عقلنا ، ومستقلة عنه . والمادة تأتى فى الصدارة ويتلوها العقل ، ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادى له ، لها السيادة على الحياة الروحية التى هى انعكاس الوجود ، ويعلق زعيم من زعماء الشيوعية على ذلك بقوله : « إن على حزب طبقة العمال ألا يقيم أعماله على مبادىء العقل البشرى المجردة ، ولكن يقيمها على الأحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع ، باعتبارها القوى الفاصلة للارتفاع الاجتماعى (١)

٢ — العالم بطبيعته مادى ، والظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك ، وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة وليس من حاجة له إلى الروح الشاملة : فالشيوعية تؤمن

(١) ٣١ الدستور السوفييتى

بنظرية النشوء والارتقاء التي قال بها دارون ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله :

وترجع الشيوعية كل شيء ، حتى الدين والفلسفة والقانون والسياسة والأخلاق والثقافة والفكر ، إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية ومصالح الطبقات . فالعامل الحاسم عندهم هو طريقة الحصول على مقومات الحياة الضرورية للبشرية، وتاريخ ارتقاء المجتمع كما يقول لينين هو قبل كل شيء تاريخ ارتقاء الانتاج ، فهو أساس كل نظام اجتماعي، وكل شيء عندهم يخضع للتفسير الاقتصادي ويجب ان يكون هدفه زيادة الثروة ، حتى الأدب ، فالأدب الجيد عندهم هو الذي يدعو إلى زيادة الإنتاج الأنساني ويعاون العناصر التي تعمل لتحقيق ذلك . وكل حديث تاريخي له في رأيهم تفسير اقتصادي، وهذا التفسير المادي للتاريخ ينكر الدين بداهة .

فالمادية الماركسية إلحادية بطبيعتها ، معادية عداء مستحكماً لكل ما يمت بصلة إلى الدين ، وكان ماركس زعيم الشيوعيين الروحي وشيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ، ولا يدين إلى بالمحسوسات ، ومما يؤثر عنه قوله : « لا إله ، والحياة مادة » وهو شعار الشيوعية الحديثة ، وكان يقول : إن الدين هو مخدر الشعوب، ويقول : « ليس الدين هو الذي يخلق الرجل ولكن الرجل هو الذي يخلق الدين ؛ والدين هو صدى أنين الانسان المدوس بالأقدام » ، ويقول : رسالة الطبقة العاملة هي القضاء على الدين وعلى الداعين اليه » . ويقول هوبز أستاذ ماركس : « إن الأشياء المادية وحدها هي المحسوسة بالنسبة لنا ، فانا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، إن وجودي الخاص بي هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصدقه » ، ويقول فردريك انجلز : لا محل مطلقا لوجود خالق ، ويصر لينين على أن الدين مسألة خاصة بالفرد

لا علاقة له بالدولة ، أى يرى فصل الدين عن الدولة فصلا تاماً ، فلكل فرد فى رأيه الحق المطلق فى اعتناق أى دين وفى عدم الإيمان بدين ، ويجب طرح التفكير فى الدين نهائياً . ويقول ستالين : « الحزب الشيوعى لا يمكن أن يكون محايداً تجاه الدين ، إن الحزب يقف إلى جانب العلم والدين ينافيه ». هذه هى عقيدة الماركسية الشيوعية التى جعلت أعمالهم تسير وفق هذا الاتجاه المادى الإلحادى ؛ ففى قانون ٥ فبراير ١٩١٨ الذى صدر فى روسيا نص على فصل الدين عن الدولة ؛ وأن كل مواطن حر فى اعتناق أى دين من الأديان وفى عدم الإيمان بشىء منها ؛ وألغى القسم بالدين ، وفصل التعليم عن الدين ، وحرم التعليم الدينى فى شتى أنحاء الاتحاد السوفييتى حتى فى الجمهوريات الإسلامية ، وصودرت أملاك الهيئات الدينية ، وتلا ذلك سياسة القضاء على الدين ومظاهره فى الدولة ، والحملة على رجال الدين ، وتحريم ظهورهم فى المجتمعات العامة ، وقتل عدد كبير منهم ، وأغلقت المساجد والكنائس ، وحولت إلى مكاتب للدواوين ، وصودرت أموالها ؛ وحرم تدريس الدين ، وألفت الجماعات والهيئات للدعاية اللادينية ، وصدرت مجلات تدعو إلى الإلحاد (١) . وفى عام ١٩٢٥ عقد مؤتمر موسكو لوضع الإجراءات الكفيلة بالقضاء على النزعة الدينية وبث روح الإلحاد فى المدارس والجيش ، وقام « اتحاد الإلحاد » بهذه الرسالة ، وبلغ عدد فروعه عام ١٩٣٥ سبعين ألف فرع تضم الملايين ، وبتأثيره صار معظم السكان ملحدين ، وبذلك تعطلت مادة الدستور التى تنص على أن الدعاية الدينية مكفولة كالدعاية اللادينية ، فأصبح لرجال الدين أن يقيموا الصلاة ، ولكن يحظر عليهم أن يدعوا إلى الدين ،

---

(١) راجع ١٣٧ و ١٣٨ الدستور السوفييتى .

— ٢ —

أما موقف المادية من الإسلام خاصة فواضح كل الوضوح من أقوال زعمائها وساستها : يقول مولوتوف « لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز وفلسطين » ، ولقد عادت الشيوعية فكرة الجامعة الإسلامية الجامعة لقوميات المسلمين عداء شديداً ، ولم يأت عام ١٩٣٣ حتى أرغمت الحكومة القوميات الإسلامية على اتخاذ الحروف اللاتينية عوضاً عن الحروف العربية ؛ وبذلك قطعت صلة هذه القوميات بالعالم الإسلامى ، وفى عام ١٩٣٧ أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية ، وكل هذا لإقامة سد يصد الدعوة الإسلامية ، مع أن روسيا أباحت للارمن والجورجيين الاحتفاظ بحروفهم الهجائية الخاصة ؛ ولم ترغمهم على استبدالها بالحروف اللاتينية ، مع قلة عددهم بالنسبة للمسلمين فى الاتحاد السوفييتى الذين يبلغون نحو ثلاثين مليوناً : وبهذا أصبح المورد الثقافى للمسلمين فى روسيا هو اللغة الروسية وآدابها وثقافتها ، عوضاً عن اللغة العربية والثقافة والآداب الإسلامية : وهناك قيد آخر على الحرية الثقافية للمسلمين فى روسيا ، إذ لا تجيز القوانين هناك ان تكون لأية قومية أو أقلية عنصرية فيه — ومن بينهم المسلمون — علاقة روحية أو ثقافية بقومية أخرى لا تماثلها فى العقيدة أو الثقافة خارج نطاق الاتحاد السوفييتى (١) ، وبهذا حرمت روسيا على المسلمين الحج إلى بيت الله الحرام ، وحالت بينهم وبين الاتصال روحياً وثقافياً بالعالم الاسلامى الحر ، وقد اضطهدت روسيا المسلمين فى تركستان وبخارى وسمرقند وطشقند وفرغانة وخوارزم وفى كل مكان اضطهاداً شديداً ، ونفت الكثير منهم الى مجاهل سيبريا ، وظهر شعورها حيال المسلمين واضحاً من تأييدها المطلق

(١) ١٩٠ الدستور السوفييتى .

لقيام دولة الصهيونيين فى فلسطين العربية .

وإذا كان دستور ١٩٣٦ قد تخلى عن فكرة حرمان رجال الدين من حقوقهم السياسية ، فان مبعث ذلك زوال هذه الطبقة من المجتمع وتمكين النظام السوفيتى . . فنى خلال الحرب الأخيرة أطلقت الحكومة الحرية الدينية من عقالها ، فأعلن زعماء الشيوعية فى مستهل عام ١٩٤٣ الرجوع إلى الدين والاعتراف بالله ، وإن كان هذا لايعنى إيمان الشيوعية بالدين ، فالطبقة الحاكمة هناك لن تقبل فى صفوفها إنساناً يؤمن بدين من الأديان (١) ، والتعليم بكافة مراحله ينشر الالحاد ، والهيئات والمنظمات الشيوعية كلها تصدف عن الدين ، ورجال الدين تأثيرهم على الشباب قليل ، وهم يخضعون لتوجيهات الدولة ويدعون لسياستها ويوجههم مجلس المعتقدات الدينيـــة الخاضع لسيطرة مجلس الوزراء . . . إن الشعوب خلال الحروب لاتستطيع أن تعيش بغير دين ، وهذا وضرورة الرد على دعايات هتلر والفاتيـكان ، والتقرب إلى الدول الديمقراطية ، وكسب ثقة الشعوب السلافية ، هو سر ذلك التحول فى سياسة الشيوعية نحو الدين خلال الحرب الأخيرة ، على أنه لم يبلغ قبول روسيا للدين ولا الإذن به إلى المعطف ، ولم يصل الدين مع ذلك إلى سابق عهده قبل الثورة (٢) .

إن الدين كائناً ما كان عنصر من العناصر التى لاتتم الحياة بدونها . حتى هؤلاء الذين نسميهم ملاحدة ، أغلب الظن أن لأكثرهم رأياً فى أسلوب الحياة كيف يحياها الحى ، وتصوراً لما قد تـكون عليه الحال بعد الموت ، فهذا الرأى وذلك التصور كثيراً ما يرتفعان إلى نوع من أنواع العقيدة التى قد

---

(١) ١٤٢ الدستور السوفيتى

(٢) عن كتاب روسيا السوفييتية لدالن

تنهى إلى أن تكون دينا ، ولقد كان تولستوى المبشر الروحى بالشيوعية مؤمنا بالدين ، وكان يقول : « إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة ، ويقول : « إنى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولولا أنى أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد ، عش باحثاً عن الله وإذاً فلن تعيش بدونه ، وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى الكمال الخلق وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة » . ويقـــول شوبنهور : إن فكرة الاله الذى ليس له نهاية وقدسية الروح والعلاقة بين الله وعباده كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة بغيرها البقاء » . ويقول رينان : « من الممكن ان يتلاشى كل شىء نحبه إلا الدين ، فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى » . ويقول أوجست سباستيه فى كتابه « فلسفة الدين » : « أنا متدين لأنى لا أستطيع غير ذلك ، فالتدين لازم معنوى من لوازم ذاتى » .

وكتب الرئيس الأسبق لأكاديمية العلوم فى نيويورك فى كتـــابه « الإنسان ليس وحيداً » ويقول(١) : « ان البشر لا يزالون فى فجر عصر العلم ، وكلما ازداد ضياء العلم سطوعا جلالنا شيئاً فشيئاً صنعة خالق مبدع ، ففى السنوات التسعين التى مضت منذ عهد « دارون » تمت للعلماء كشوف هائلة ، وبذلك صار التواضع — الذى هو شيمة العلماء — والإيمان القائم على العلم يدنوان بنـا رويداً رويداً من معرفة الله » . . ثم عدد سبعة أسباب للايمان بوجود الله ، ترجع إلى مظاهر التدبير الإلهى فى الحيـاة والكون

(١) من مقال نشر فى عدد فبراير ١٩٤٧ فى مجلة المختار بعنوان : « سبعة أسباب لايمان عالم بالله » .

والطبيعة ، إلى أن قال : « إن قدرة السماء فى كل مكان وكل شىء ، وإن الله فى كل مكان وعند كل شىء ، ولكنه أدنى مايكون إلى قلوبنا ؛ إن قول صاحب المزامير : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » لهو قول صحيح من ناحية العلم والتخيل جميعاً » . . . وأفتى عدد كبير من علماء الذرة والفلك وعلم الحياة والرياضة ، بأن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الكون ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لاحد له ، ويقول أحدهم — وهو الدكتور راين — إنه ثبت من أبحاثه فى المعامل إن فى الجسم البشرى روحاً أوجسماً آخر غير منظور ، وقال عالم آخر إنه لايشك فى أن الكائن الأعظم وهو ماتسميه الأديان السماوية «الله» هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة فى هذا الوجود(١) .

أفبعد هذا كله دليل على خطل الماديين ، وفساد رأيهم ومذهبهم فى الدين ، وأنهم على ضلال مبين ؟ وتبارك الله عز وجل القائل فى كتابه الحكيم : « وقالوا ماهى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، ومالهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لايعلمون» . وصدق الله العظيم

---

(١) عدد ٢٣ / ٨ / ١٩٥١ من صحيفة المصرى

(٢) سورة الجاثية

من حديث الإسلام

جاء الاسلام ، ودان لعقيدته العرب ، وخضعت لإمرة الهداة الداعين إليه وإلى الله القبائل والشعوب ،وأصبحت الأمم تنظر إلى المسلم وكأنه ملك جاء يبشرها بالتحرير ،ويفتح بينها وبين الحياة أبوابا متصلة ، وينقذها من الظلام الذى كانت تعيش فيه ؛ ظلام الوحشية والجهل والاستبداد ، ودخل المسلم البلاد وفى يده وثيقة هى كتاب الله القرآن الكريم ؛ وثيقة الحرية للمضطهدين ؛ ودستور الحياة للمعذبين ، وقانون الأمن والسلام والرفاهية للمحرومين المنكوبين ، وطالما اهتزت الملوك فرقا عندما جاءهم المسلمون يعلنونهم بكلمة الله : حرية وكرامة وإخاء ومساواة للانسان وعزة وتعاون ورفاهية للامم

وهكذا كان المسلمون ؛ وكانت منزلتهم عند شعوب الأرض ، كانت الدنيا ترهبهم ، والملوك تفزع من إرادتهم ،والأرض تهتز بقوتهم وعزيمتهم ، وكانوا جنا فى ثياب بشر ؛ وملائكة فى زى بدو ، بل إنهم مكثوا أزمنة مديدة فى جزيرتهم قانعين بالحياة البسيطة الهادئة فيها ، يعيشون فى وديانها يحارب بعضهم بعضا لأسباب واهية ، وأمور تافهة، ويجاورهم دولتان عظيمتان :دولة الفرس ودولة الروم، وقضوا على هذه الحال قرونا متعاقبة ،حتى جاء الإسلام بهديه فأنار بصائرهم ،وأزال ما كان بينهم من شقاق وعداوة ، وألف بين قلوبهم، فصاروا أمة مهذبة متدينة قوية البأس . خرجت جنود هذه الأمة من شبه الجزيرة العربية داعية إلى الأخوة ،حاملة لواء العدالة ، رافعة راية الحرية ، خاضعة لإمام واحد تأتمر بأمره ،وتنتهى بنهيه ، جادة فى فتح الأمصار ، لتنقذ الأمم من خرافات أفسدت عقولها ،وظلم أحاط بها، وجهل كاد يقضى عليها.

وفتح العرب فى غزواتهم ممالك كثيرة ، وعمروا الأرض التى فتحوها ، وشقوا الأنهار ، وأسسوا المدن ، وساسوا الناس بالعدالة ، ونشروا الحضارة والحرية والمساواة والأخاء فى أرجاء العالم

وكان الفتح الإسلامى محدودا بأغراض وغايات ، لا يصح لقائد أن يتجاوزها ، ولا لجيش أن يخالفها . وكان الجيش الإسلامى هو جيش الأمان للمظلومين ؛ ووظيفته دعوة الناس إلى الإسلام رغبة أو رهبة ، ويبين لك هذا كتاب عمر بن الخطاب إلى قائد جيوشه : سعد بن أبى وقاص ، قال :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد : فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال . فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم . فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛ لأن عددنا ليس كعددهم . ولا عدتنا كعدتهم . فان استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة . وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ولا تقولوا : إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا . فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل — لما عملوا بمساخط الله — كفار المجوس . (فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا)

واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم أسألوا الله تعالى ذلك لنا ولكم . . وترفق بالمسلمين فى مسيرهم ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم — والسفر لم ينقص قوتهم فانهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع . وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم

وأمتعتهم . ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرد أحدا من أهلها شيئا ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوا لهم خيرا ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عينا لك . وليكن منك من دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ولا تخص بها أحدا بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلاعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم أذك أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه لترهب به عدو الله وعدوك والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان والحمد لله رب العالمين

وقد حرص الإسلام على تحقيق العدل دون هوادة ولا ترخص ولا تسامح .. العدل الشامل المطلق الذي لا يعرف محاباة ولا مجاملة ولا مرونة ولا صهرا

ولا قرابة ، ولا يتأثر برضاء أو غضب ، ولا بغير ذلك من الاعتبارات التى قد توهن من قوته وتضعف من مضائه . فهذه آيات الكتاب الكريم تفيض بالحض على التمسك بالعدل فى أروع الصور وفى شتى المناسبات ، وهذه أحاديث الرسول الأمين وسنته تؤازر العدل وتدعم أركانه بالقول والعمل والقدوة الحسنة ، وهؤلاء أئمة المسلمين الأولين من الخلفاء الراشدين يضربون الأمثال فى تحقيق العدل إلى أبعد مدى وأسمى غاية . فهذا عمر بن الخطاب يقيم الحد بنفسه على ابنه ، ويأبى إلا أن يمضى الجزاء فى جبلة بن الأيهم عندما استعداه عليه أحد بنى فزارة ، وإذ يعتز أمير الغساسنة بسلطانه وعلو مكانته وشرف محتده ويعترض على إمضاء العقوبة فيه من أجل أحد السوقة يجيبه عمر بحزم وقوة يقين : « قد سوى الإسلام بينكما فلا تفضله إلا بالتقوى » ، وآثر عمر أن يفقد الإسلام هذا الأمير ويفقد بفقده نصراء أقوياء على أن يتهاون فى تحقيق العدل عالماً بنافذ بصيرته وصدق إيمانه ، إن الإسلام يخسر كثيراً بالتهاون فى إقامة العدل ، وأن روح الإسلام وسمو تعاليمه وعدله الشامل كفيلة بأن تعوضه عن جبلة وأعظم من جبلة بمن يجتذبه من الشعوب التى دخلت فى دين الله أفواجا .

وهذا عمر يقول فى كتاب له إلى سعد بن أبى وقاص « أما العدل فلا رخصة فيه فى قريب ولا بعيد ولا فى شدة ولا رخاء ، والعدل وإن رئى لينا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل » .

وحرص الإسلام على حسن اختيار القضاة وتوفير الكرامة والاستقلال لهم ، وتوفير الضمانات والطمأنينة للخصوم حتى فى النظرة والالتفاتة ، وذلك ليتحقق للعدل أقوى ضمان ، وبذلك يسمو الإسلام بمبادئه فى تحقيق العدالة — فوق أحدث النظم التى تتباهى بها أعرق الحضارات القائمة . انظروا إلى عمر

كيف يوفر الضمانات والمساواة للخصوم فى تحقيق العدالة فى كتابه إلى أبى موسى الأشعرى : «آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك» ، وانظروا إليه وهو يضع أسس التقاضى ويرسم حدوده ويدعو إلى الوئام فى حله ويحبذ الرجوع إلى الحق إذا اتضح سبيله : «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فرجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، مع احتفاظ بالحق المكتسب وقوة الشىء المقضى به ، ذلك ماقضينا وهذا مانقضى» . ويناشد القضاة الحلم وسعة الصدر فى تحقيق العدالة فيقول : «وإياك والقلق وضيق الصدر ، والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر» . واسمعوا كيف يتشدد على بن أبى طالب فى اختيار القضاة لتتوافر فيهم ضمانات العدالة وكيف يوفر لهم من الكرامة والاستقلال والمكانة وبسطة العيش مايجعلهم بمنجاة من وسائل الإغراء والضعف الذى ينشأ عن مطالب الحياة ومظاهرها . يقول فى عهده للأشتر النخعى حين ولاه مصر : ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفىء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على الطمع ، لا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل مايزيل علته وتقل معه حاجته للناس ، وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن اغتيال الرجال عندك . فانظر فى ذلك نظرا بليغا .

هذه هى العقيدة الصادقة

الإسلام وما أكثر مفاخره وآياته ، عجب أمره ، وغريب شأنه ، كيف استولى على القلوب والعقول والأرواح والمشاعر ، فى عهد النبوة ، هذا الاستيلاء العجيب الغريب ، الذى ليس له شبه بين العقائد والمذاهب والأديان ، فهذا بلال وقصة إيمانه معروفة ، بلال الذى يقول فيه عمر: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا ، ، أما أبو بكر فقد ساد بسبقه إلى الإسلام ، وبصدق إيمانه وعظيم بلائه ، وأنه صديق الرسول ؛ كان المؤمن الأول ، والصاحب الأول ، والخليفة الأول . وأما هذا العبد الذى ساد المسلمين ، وشهد بسيادته عمر ، وكان إعتاقه فخراً لأبى بكر وتسنية لمقامه ؟ هذا العبد المعتق ، بل السيد المسود ، هو « بلال المؤذن » عبد رقيق من أمة حبشية ، أما أبوه العربى القرشى فكان أول جان عليه ، ألقاه إلى الحياة وخلاه ، وبرىء منه كما برىء من عنترة العبسى أبوه شداد . وكان فى شريعة العرب فى جاهليتها أن تتخذ الإماء سودا وبيضا ، فاذا ولدت لأحدهم أمة نفى الولد وأنكره ، فلا ينسب إليه ، ولا ينال من رعايته ، ولا يرث من ماله ، ويرسل كأمه مملوكا رقيقاً ، ومتاعا من سلع الحى يباع ويشترى ، ويوهب ويهدى ، كان ذلك فساداً وظلماً ، ولكنه ظلم تقرر كأنه الحق ، ومنكر اتبع كأنه الواجب ، وكأس مرة كرع بلال نصيبه منها ، فنشأ نشأة الرقيق ، يسخر فى حمل المتاع وجمع الحطب وخدمة الحيوان ، وما كان له أن يتطلع إلى خدمة كريمة ، كخدمة فرس ، أو إعداد سلاح . ولا كان له أن يغشى مجالس السادة إلا خادماً مأموراً ، ناكس الرأس ذليل الطرف ، على أن بلالا قد حباه

الله حلاوة فى الصوت وجمالا فى الإلقاء ،وربما غنى وهو يعمل عونا لنفسه . فاذا مر به سيد من العرب قطع غناءه وكتم صوته . وربما رفع صوته يحدو الإبل سيرها حين رواحها وغدوها . وعلم به شباب قريش ، فاستمعوا إليه وطربوا لصوته ، فاذا جاء الليل وخرج الفتيان إلى بعض شعاب الجبل يلعبون ويسمرون ويلهون ، شاقهم الغناء وذكروا بلالا فاستدعوه وكلفوه أن يغنيهم ، ويستخفهم الطرب فينسون أن بلالا عبد رقيق ، ويقربونه منهم ويشركونه فى سمرهم ، فتنكشف نفسه لجلسائه عن سمير راجح العقل ، حلو الحديث ، حسن البيان ، يملأ عروقه دم عربى . وشاع لبلال بذلك ذكر حسن ، ورفع عن أعمال العبيد ، وندب للتجارة والرحلة إلى الشام واليمن — وهى أشرف أعمال قريش ، وأنبل ما يحترفون ، وتهيأت له بذلك عيشة جديدة من حقه أن يرضى عنها ويغتبط بها . ولكن نفس بلال كانت أنبل من رأى سادته فيه ، بل كانت أنبل من نفوس جمهورهم ، فلم يقبل تلك العيشة اللاهية اللاعبة فى شبابهم ، ولا رضى تلك الحياة الظالمة الطامعة فى شيوخهم ، وضجر بما حوله من فساد وظلم . وكان فى مكة جماعة من العقلاء قد سموا عن جاهلية العرب وما فيها من شر ينشأ عليه صغيرهم ، ويتورط فيه كبيرهم . وكانوا يجتمعون ويتذاكرون هذا فى مجالسهم بالكعبة وفى سمرهم بعيدا عنها ، فنهم من حرم على نفسه الخمر ، وزين للناس هجرها ، ومنهم من دعا الناس إلى حلف لينصرن كل مظلوم . كان من هذه الجماعة أبو بكر ، وكان سيدهم الأمين محمداً قبل البعثة . واتصل بتلك الجماعة بلال ، فاذا هم يرضون صحبته ، ويحمدون رأيه وسيرته . وإذا هو يرى فيهم أصدقاء قلبه وأصفياء نفسه . وتتوثق الصداقة بينهم — صداقة الخير وحب الإصلاح . وتلك صداقة يكون فيها الكثير واحدا ، والمتعدد فردا . تفنى الأشخاص فى الغاية . فاذا هم رجل واحد . يروى الطبرى

أن قافلة ذهبت إلى الشام بتجارة فيها جماعة من رءوس قريش ، وفيها الأمين محمد قبل رسالته . وطرأ له فى الطريق بعض العذر ، واضطر أن يعود ، فلم يختر لصحبته فى عودته إلا بلالا . وكذلك رفعت بلالا نفسه ومواهبه إلى أشرف أعمال العرب ، وإلى أسمى جماعاتهم . وما هو إلا أن أذن الله بالخير ، وأوحى إلى رسوله بشريعته ، حتى كان من أول المؤمنين أبو بكر وبلال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يدعو إلى الله سرا : «من اتبعك على هذا الدين ؟» ، فقال : «رجلان : حر وعبد ، وكان الحر أبا بكر ، والعبد بلالا» ومضى بلال فى عمله لسيده يعبد الله سرا ، ويجتمع بالرسول عليه الصلاة والسلام ، فيروى بآيات الله قلبه . ولكن سره قد فشا واطلع سيده على ما يكتم من إيمانه ، فسأله : أحقا يا بلال قد استخفك محمد فصبأت وكفرت باللات والعزى ؟ ، فقال : «ما استخفنى محمد ، وما صبأت وإنما هدانى الله ، وأرشدنى الرسول الأمين محمد ، فآمنت أنه لا إله إلا إله واحد ، لا يعبد سواه ، ولا يشرك معه غيره من حيوان أو إنسان أو حجر» . فقال مولاه : لقد تكهن العبد ، وغلبه سحر محمد ، ماللعبد وتخير الأرباب ، والتمييز بين الأديان ؟ — يوم يكون له أن يختار سيده ، ومالك رقه ، أو يتصرف فى شىء من المال بيده . فليرق بصرك إلى السماء ، ولتعل إلى المفاضلة بين الأرباب . ولكننا — أيها العبد — أحسنا إليك ورفعنا من قدرك ، فدعاك سوء الطبع ولؤم النفس إلى نكران جميلنا ، والخروج على ديننا ، والكفر بآلهتنا . فإن لم تعبد آلهة سيدك فما أهون أن يراق دمك كما يراق فى جانب من البادية دم الشاة . قال بلال : لا بأس بالموت يا مولاى ! هو سبيل كل كل حى ونهاية كل حياة . وهو أحب إلى من الضلالة والكفر ، وحياة الفساد والذل ، . قال السيد : إن ابن الأمة ليتشجع فيبدى زهادة فى الحياة واستخفافاً بالموت . وهو — إن رأى السيف — عائد إلى رشده ، فقد علمنا

من دين العبيد أنه لا يملأ عقل العبد هوى وقلبه طاعة إلا العصا والسيف . قال بلال : مايعيب ابن الأمة — ياسيدى — ولا ابن الحرة أن يتشجع ، ولا يحتاج إلى الشجاعة حتى يستخف بالموت ،وثارت ثورة الغضب فى نفس أمية بن خلف مولى بلال وسيد بنى جمح ، وصرخ لمن حوله : خذوا العبد إلى الموت ، ومضى بلال هادىء النفس ، مطمئن القلب ، يتلقى الموت الذى أمر به سيده . وفكر أمية : إن قتل بلالا فما كان إلا خسارة عليه وضياعا من ماله ، فخير له أن يستبقى ويستصلح ، وأن يرهق عذاباً حتى يرجع . ونادى خادمه : أن أمسكوا عن قتل العبد . أما بلال فقد آمن أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة . وما يملك العبد إلا نفسه ، فقد باعها من الله واستربح الثمن . وعاد أمية إلى بلال ينصحه ويحذره ويخوفه وينذره، والمؤمنون يساومون بإيمانهم ، ولا يزحزحون عن دينهم ، فيأمر أن يعذب وينكل به حتى ينزع عن عناده . فانما شؤم العبد على نفسه . ويعرى بلال من أثوابه ويلبس درعا من حديد . ويحكم وثاقه ، ويلقى فى حرة من حرار مكة ضاحيا للشمس المحرقة ، ويحمى حديد الدرع فيكوى جلده ويشوى على هينة ويطيلون عذابه ، وهو صابر محتسب ، ويقولون: عد يا بلال عن دينك ، واعبد اللات والعزى . فيقول : أحد ، أحد ، إنما هو الله أحد . ويشمت ببلال من يشمت ، ويشفع فيه من يشفع ، ويذكر أمية من خلق بلال أنه عبد عنيد أبى ، وأنه إذا شهر مهينا لم يلبث أن يذل . فيأمر به أن يشوه منظره أقبح ما يرى ؛ وأن يلبس أخزى ثياب ، وأدعاها للهزء والسخرية ، ويقاد بحبل فى عنقه ، ويجمع حوله الصبية ، ويطاف به حول الكعبة فى موكب صاخب ساخر . وكان تدبيراً لئيما أليما بلغ من نفس بلال وارهقها إرهاقا ، ولكنه الإيمان يحلو به المر ، ويلذ معه الألم ، ويكون احتمال الألم فى سبيله إعزازاً . وطاف موكب الصبية ينادى ببلال :

هذا الكافر بدين اللات ! . ونادى العاطفون عليه : عد لدين اللات والعزى لتنجو من موقف الذل وعذاب الهون . وبلال يجيبهم : « أحد، إنما هو الله أحد .

وأحس أمية عجزه أمام بلال ، واستشعر احتقار العرب له ، إذ لم يملك عبده ولم يستطع فى أمره حولا . وسعى الساعون إليه : لقد ملأت البيت بعبدك ضجيجاً وصخبا . هلا عذبته أو حبسته وأرحت الناس منه ؟ فما عسى أن تصنع إن وثب بك فتى من قومك ؟ أوصبا إلى دين محمد أحد من أهلك؟ وكان أبو بكر الصديق يعلم هذا ويضيق به ، ويود لو استطاع أن يفدى صديقه فى الجاهلية وصاحبه فى الإسلام ، ورفيقه فى السبق إلى الدين الحنيف . فسعى حتى اشتراه وأعتقه ، واتخذه الرسول أمينا له وخازناً . وعذب المسلمون بمكة ماعذبوا ، حتى أذن لهم فى الهجرة فهاجروا ، ثم قاتلوا وقتلوا ، وهزموا — وبلال بجوار الرسول فى عسره ويسره ، حتى جاء نصر الله والفتح ، ودخل المسلمون مكة فاتحين غالبين ، وحطمت اللات والعزى ، وقام بلال على ظهر الكعبة يؤذن : الله أكبر ، الله أكبر . فتردد صداه أرجاء مكة ، ويجيب دعاءه سـادة العرب . أى ثأر نال العبد ! بل أى فوز أدرك دين الحق ، وأى آية لله تعالى فى طى هذا الفوز ؟ وليد منفى ، وعبد مهين ، وغريب مخذول ، يقوده الصبية بحبل فى عنقه ، ضحكة الصغير وسخرية الكبير — يضع اليوم قدمه فى رؤوس الأصنام ، ويقوم على انقاض العصبية وأطلال الجاهلية يؤذن بنداء الحق : الله أكبر ، الله أكبر ، . إنها لآية من آيات الله أن يكون أول مؤذن باسمه فى بيته هذا العبد الحبشى المضيم المنفى . وإنها لعبرة أن يعدله بالأمس موكب الصبية يهتفون باسم اللات ، فيقوم اليوم فى جيش من المسلمين ينادى من أعلى البيت باسم الله وحده : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

وقرت عين بلال بما نال الحق من الفوز ، فهل علم أن نداءه هذا سيملأ الدنيا وتردده أقطار العالم؟ أكان يقدر هذا ؟ أكانت تبلغه آماله ؟ بلى ! تعلمه وآمن به ، وقرأ كلمة ربه : هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . فما ارتاب وما كان للمؤمن أن يرتاب . عاد بلال إلى المدينة مع الرسول عليه الصـــلاة والسلام ، أمينه وخادمه وصاحب الدعوة إلى الصلاة ومؤذنه ، حتى أراد الله لنبيه خير الدارين ، وصدعت قلوب المسلمين وذهلوا ، ثم ثابوا إلى أنفسهم ، وتجمعوا حول الجسد الكريم مسجى ، وقام بلال يؤذن . الله أكبر الله أكبر . ويتمثل وجه الرسول وبشره وإيمانه وعزمه ، وأنه كان ملء القلب ، ملء العيون ، بل ملء الدنيا ، حياة وهدى ومعانى من الإيمان والذكرى ، فاض بها قلب بلال فتمثلت فى ندائه : الله أكبر الله أكبر . ثم أفاق وأفاقوا إذ نادى : حى على الصلاة . وأقبلوا على صلاتهم فكان هذا آخر صوت رفعه بلال بالأذان فى المدينة . وجهده أبو بكر أن يؤذن بعدها ، واشتد عليه عمر — فأبى ، ثم أبى وقال : ماأملك صوتا أرفعه بالأذان بعد ، ولكنى ، ياخليفة الرسول ، قد سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : خير الأعمال بعد الإسلام الجهاد . ولا جهاداليوم بالمدينة فأرسلنى إلى الثغور ، فما لبلال من سمع ولا بصر ، ولا يد ولا قدم إلا لله ، فهى فانية فى سبيل الله ، وأحب أبو بكر أن يبقيه معه ناصحا ومشيراً ، ومحدثاً بما علم من حديث الرسول وسنته ، فقد كان طويل الصحبة كثير الخلطة ، ولكن بلالا لم يعرف مذ كان عبداً إلا أن يرى الرأى فلا يرجع عنه ، وما يحاول إلا أفضل الأعمال . وقد علم أن خير الأعمال الجهاد ، فلا بد له أن يجاهد . وأرسل إلى الشام إلى خالد بن الوليد أمينا وخازناً — كما كان مع الرسول . ومضى لربه أبو بكر ، وجاء عمر وعزل خالداً وولى سعداً

وكتب إليه أن يشاطر خالداً ماله ، ويرد نصفه الى بيت المال . فتقد سعد وسلم بلال لا نصف مال خالد ، ولكنه تردد أن يقاسمه شيئاً من المال ، وأحب أن يجامل خالداً ، إعزاز قائد لقائد . وبقيا أميراً على أمير . فقال بلال لسعد فى قوة وعزم : إليك كتاب أمير المؤمنين فاقرأه وقف فى التنفيذ عند مارسم فيه ، وسلم خالد بما أراد بلال وهو يقول : نطيع الأمير ونعظم المولى ولما تم للمسلمين ملك الشام ، وحضر عمر من المدينة ، دعا بلالا أن يؤذن بين يديه فأجاب بلال : أما الآن فنعم . ما يمنع العبد أن يسعد بهذا المسجد ، وأن يكون أول رافع للصوت بآذان الصلاة فى المسجدين المكرمين : المسجد الحرام ، المسجد الأقصى .

هذا هو الإسلام فى أبطاله ، وهؤلاء هم أبطال الاسلام فى إيمانهم ، وقوة عقيدتهم وإليك مثلا آخر :

لما سار عمرو بن العاص بالجيش الإسلامى إلى الشام ومصر وانتهت رسل المقوقس إلى عمرو أضافهم يومين وليلتين ليروا حال المسلمين . فخاف عليهم المقوقس . وقال لأصحابه : « أترون أن العرب يقتلون الرسل ويستحلون ذلك فى دينهم ؟ » فقالوا : لا . ثم أطلقهم عمرو ومعهم رسالة يقول فيها للمقوقس : (ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث : إما الدخول فى الإسلام لتكونوا إخواننا ، ويكون لكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإما الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما القتال حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين). فلما رجعت رسل المقوقس إليه قال : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة وليس لهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ، والسيد منهم من العبد ، وأميرهم كواحد منهم ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها

أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم) . فقال عند ذلك المقوقس (لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتالهم أحد . فان لم نغتنم صلحهم اليوم — وهم محصورون بالنيل — فلن يجيبوا بعده إذا أمكنتهم الفرص ، وقدروا على الخروج من موضعهم) . ثم طلب إلى عمرو أن يبعث إليه رسلا يكلمهم . فبعث إليه عشرة رجال أحدهم عبادة بن الصامت البطل المغوار ، فكان مما قاله بين يدى المقوقس : (إنى بحمد الله ماأهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا ، وكذلك أصحابى ، فانما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله ، واتباع رضوانه وليس غزونا وحربنا لرغبة فى دنيا ، ولا طلب الاستكثار منها ، فما يبالى أحدنا أكان له قنطار من ذهب ، أم كان لا يملك درهما ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحف بها . وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء فى الآخرة . وبذلك أمرنا الله . وأمرنا نبينا) . فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله : (هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره) ، واستشار أصحابه ورؤساء الروم فى مصالحة العرب ، فلم تفته الشورى إلى السلم(١) ، بل أخذتهم العزة بالإثم . ونازلوا العرب فى مواقع عدة انتهت بنصر العرب . وتم لهم فتح البلاد سنة عشرين من الهجرة الكريمة

وشبيه بهذا ما كان بين سعد(٢) ورستم (٣) إبان فتح البلاد الفارسية . فقد

(١) عدم الحرب .

(٢) هو سعد بن أبى وقاص . الصحابى الجليل . والقائد الأعظم . فاتح البلاد الفارسية فى خلافة عمر بن الخطاب .

(٣) من أعظم قواد الفرس . وقد اختاروه من بين قوادهم لمقابلة سعد ، وجهزوا جيشا كبيرا فيه ١٢٠،٠٠٠ مقاتل وكان جيش سعد ثمانية آلاف

ترددت بينهما الرسل ؛ وتوالت السفارات ، فرأى رستم من ثبات رسل العرب ورباطة جأشهم ، وقوة حجتهم - ماملأ نفسه دهشا وإعجابا . يذهب البدوى إلى رستم فيراه جالسا على سرير الذهب والوسائد والفرش منسوجة من الذهب أيضا . وحوله العجم على الأرائك بالتيجان البراقة . والزينات الباهرة . والأفيال تحيط بالمجلس إرهابا وتخويفا — فيدخل البدوى عارضا رمحه ، متقلدا سيفه . متنكبا قوسه . فيربط فرسه قريبا من سرير رستم، فيصيح عليه العجم الحاضرون . ويهمون بمنعه . فيردهم سيدهم ، ويستدنى العربى منه فيمشى إليه متكئا على رمحه . يطعن به ذلك الفرش وتلك الوسائد . فيمزقها وهم ينظرون إليه ويدهشون لجرأته ، وعدم مبالاته . إذ لاعهد لهم بمثله . فاذا وصل إلى رستم أصغى إلى حديثه . ثم رده عليه ، وراجعه فيه غير هياب ولاوجل . فكان كبير الفرس يسمع من العرب إجابة مسددة ، وحكمة رائعة . ويرى منهم جنانا ثابتا ، ورأيا صائبا ، فمن ذلك أن سعدا رضى الله عنه كان يبعث إليه فى كل مرة رسولا غير الذى أرسله من قبل — فقال رستم لبعض من أرسل إليه : (لم لم يأت رسول الامس)؟ قال : (لأن أميرنا يعدل بيننا فى الشدة والرخاء) وقال يوما لعربى يقبض على رمح قصير (ماهذا المغزل ؟ الذى فى يدك) فأجابه : (إن الجمرة لايضرها قصرها) . وقال مرة أخرى لبدوى :(إنى أرى سيفك رثا) ، فأجابه: إنه حاد الغمد حديد الضرب فقال رستم لأصحابه — وقد رأى ما هاله : إن هؤلاء القوم غاية فى الشدة والقوة لايقف أمامهم أحد، فصاحوا حوله وقالوا : (لاتترك ماأنت عليه لشىء رأيته من هؤلاء ، ويروى أنه لما قدم العرب لفتح مصر وحاصروا حصن (١) بابليون ، وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس، فرأوا من العرب الحرص على فتحه والصبر على القتال ورغبتهم فيه ، فأرسل

(١) حصن قديم جنوبى القاهرة على مقربة من جامع عمرو

المقوقس إلى عمرو بن العاص قائد الجيش الفاتح يقول له : إنكم دخلتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وأنتم عصبة يسيرة(٣) وقد حصرتكم الروم وجهزوا اليكم جيوشا عظيمة معها العدة والسلاح وأحاط بكم هذا النيل ، فأنتم أسارى فى أيدينا فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعل الامر يأتى بيننا وبينكم على ماتحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه .

ماشأن هذه العقيدة القوية الجياشية الساحرة الطاغية ، إن سرها فيها نفسها ، إنها عقيدة القوة والحرية والسلام والعزة ، إنها هى التى رفعت نفس بلال ومن آمن بها إلى هذا المستوى الرفيع من الكرامة والعزة ، وهى التى ملأت قلوب المسلمين بروعتها وبساطتها وصدقها ، وبما فيها من حق وقوة وخير وإنسانية وسمو ، مما شهدت به حتى أعداء الرسالة الإسلامية ، فهذ أبو سفيان يشهد لمحمد ورسالته وهو أشد الحانقين عليه والمحاربين له ، قال أبو سفيان من حديث طويل :

« انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبينا أنا بالشام إذ جىء بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى « هرقل » يعنى عظيم الروم ، وكان « دحية الكلبى » جاء به ، فدفعه إلى عظيم « بصرى » فدفعه عظيم « بصرى » إلى « هرقل » فقال هرقل : « هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ : قالوا : « نعم . » ، فدعيت فى نفر من قريش ، فدخلنا على « هرقل » ، فأجلسنا بين يديه ، فقال « أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ » فقال أبو سفيان : « أنا . » ، فأجلسونى

(٣) أصل العصبة : الجماعة الصغيرة من الرجال لاتزيد على الأربعين

بين يديه ، وأجلسوا أصحابى خلفى ، ثم دعا بترجمانه فقال له : « قل لهم إنى سائل هذا عن الرجل الذى يزعم أنه نبى ، فان كذبنى فكذبوه . » ، فقال أبو سفيان : « وايم الله لولا مخافة ان يؤثر على الكذب لكذبت . »

ثم قال لترجمانه : « سله كيف حسبه فيكم ؟» قلت : « هو فينا ذو حسب . » ، قال : « فهل كان من آبائه ملك ؟ » قلت : « لا » قال : « فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ » قلت : « لا . » قال : « ومن يتبعه ؟ أشراف الناس أم ضعفاؤهم » قلت : « بل ضعفاؤهم » قال : أيزيدون أم ينقصون ؟قلت لا بل يزيدون ،قال هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟ قلت (لا)، قال : (فهل قاتلتموه ؟) قلت (نعم) قال : (فكيف كان قتالكم إياه ؟) قلت(تكون الحرب بيننا وبينه سجالا يصيب منا ونصيب منه) قال : فهل يغدر قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها . ـ فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه . قال : (فهل قال هذا القول أحد قبله) قلت : (لا) قال لترجمانه : (قل له : إنى سألتك عن حسبه ، فزعمت أنه فيكم ذو حسب ، وكذلك الرسل تبعث فى أحساب قومها . وسألتك : هل كان فى آبائه ملك ؟ فزعمت أن لا . فقلت لو كان من أبائه ملك ، قلت رجل يطلب ملك آبائه . وسألتك عن أتباعه : أضعفاء الناس أم أشرافهم ، فقلت : بل ضعفاؤهم ، وهم اتباع الرسل. وسالتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال . فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يذهب فيكذب على الله . وسألتك : هل يرتد احد منهم عن دينه بعد ان يدخلة سخطة له ؟ فزعمت ان لا . وكذلك الإيمان إذ خالط بشاشته القلوب . وسألتك : هل يزيدون او ينقصون ؟ فزعمت انهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم . وسألتك : هل قاتلتموه ؟ فزعمت انكم قدقاتلتموه فتكون الحرب

بينكم وبينه سجالا ، ينال منكم وتنالون منه . وكذلك الرسل تبتلى ، ثم تكون لهم العاقبة . وسألتك هل : يغدر ؟ فزعمت انه لايغدر ، وكذلك الرسل لاتغدر . وسألتك : هل قال هذ القول أحد قبله أ؟ فزعمت ان لا ، فقلت : لو قال هذ القول احد قبله قلت : رجل أتم بقول قيل قبله، ثم قال : « بم أمركم؟ » قلت : « يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف . » قال : « إن يكن ما تقول فيه حقا فانه نبي وقد كنت أعلم انه خارج ولم اكن أظنه منكم . ولو انى أعلم انى اخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه . وليبلغن ملكه ما تحت قدمى . »

ان النفس الإنسانية لتقبل على الاسلام إقبال الظامىء على الماء العذب، وتقبله بقبول حسن إلا من اضله الله ، وما اصدق ما يقول رسول الله صلوات الله عليه وسلم :

مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث اصاب ارضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فانبتت الكلا والعشب الكثير ، وكانت منها اجادب امسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، واصاب منها طائفة اخرى ، إنما هى قيعان لاتمسك ماء ، ولا تنبت كلا فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم . ومثل من لم يرفع بذلك راساً ، ولم يقبل هدى الله الذى ارسلت به .

دين الله

الإسلام دين الله الحق ، وشريعته الحكيمة ، ورسالته الى الخلق كافة ، انزلها على محمد بن عبدالله ، وجعله بشيرا ونذيرا ، وهاديا الى الله باذنه وسراجا منـــيرا .

إنه بحق دين الله ، والله عز وجل هو الذى أراد له الحياة والبقاء ، بل هو الذى مهد لهذا الدين ، وحاطه بكنف رعايته الأمين ، وبحبل عنايته المتين .

والأيام هى التى كانت تكشف للناس من عهد اسماعيل بن ابراهيم الى اليوم عظمة هذا الدين وجلاله وسموه ، وهى التى تظهر مزيد عناية الله بمحمد وبرسالته وأول بشارة بالاسلام كانت بمكة قبل ميلاد الرسول بعشرات السنين ، وعلى يدى عبد المطلب جد محمد الرسول الأمين ، صلوات الله عليه .
وكان عبد المطلب(١) سمح الطبع ، رضى النفس ، سخى اليد ، حلو العشرة ، عذب الحديث ، وكان أيضا قوى الإيمان ، تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها غامضة ، يحسها ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ، ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيراً أبوه من مكة حيث التجارة والثروة ، وحيث المكر والدهاء ، وحيث الوثنية السهلة التى لا تحرج فيها ولا مشقة . وأمه من يثرب حيث الزراعة والصناعة اليسيرة ، وحيث اليهودية تجاور الوثنية فتضعفها ، وتنتقص من ظلها ، وتكاد تمحوها ، وحيث الأخلاق اللينة ، والشمائل الحلوة ، وحيث الظروف ونعومة الحياة . ولد فى يثرب ، ومات عنه أبوه فلم ينقله الى مكة فنشأ بين أخواله ، وتأثر بحياتهم ، وتخلق باخلاقهم وسار سيرتهم ، حتى بلغ الشباب أوكاد . ثم أقبل عمه فانتزعه من

---

(١) على هامش السيرة

اقليمه السهل الهين الى اقليم آخر صعب عسير تجذب فيه الأرض . ولا تبتسم له السماء الاقليلا . يرحل أهله الى الآفاق ، ويفد الى أهله الناس من جميع الآفاق ، فهم يأخذون من الناس ويعطونهم ويبادلونهم الاخلاق والشمائل كما يبادلونهم المنافع وعروض التجارة . ولعل اخلاق يثرب ، وخصال مكة قد اختصمت فى نفس هذا الغلام ولعل اختصامها قد قصر ، ولكنها على كل حال قد انتهت إلى شيء من الاعتدال آخر الأمر فلم يكتمل الفتى شبابه حتى كان فتى من قريش ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش ففيه ذكاؤهم وفطنتهم وفيه اباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة لم تكن مالوفة عندهم وفيه شدة فى الدين فلما كانوا يرضونها أو يبسمون لها . على ان خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز فلم يكن يصدر فى حياته — كما كانوا يصدرون — عن الروية والتفكير وطول التدبر وانما كانت تدفعه الى العمل والاضطراب فى الحياة قوة خفية يحسها ويابى غلبها ويغلو فى الإباء ولكنه يضطر الى ان يذعن لها ويصدع بامرها . وكانت هذه القوة تصدر اليه امرها فى اشكال مختلفة ، تدفعه الى العمل حينا وكانها إرادته الخاصة قد ملكت عليه حسه وشعوره فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ولا يملك لها خلافا . وتتمثل له حينا آخر شخصا واضح المخايل بين الصورة يلم به إذا اشتمله النوم فيامره أن ياتى كذا وكذا من الامر وتنتهى اليه مرة ثالثة صوتا رفيقا ، ولكنه ملح يملا أذنه نائما يحثه على أن ياتى كذا وكذا من الامر . وكان فى هذا الصوت غموض وكان فى هذا الصوت ابهام وكان فى هذا الصوت جلال ، مصدره هذا الغموض والإبهام وكان الفتى ينكره ويرتاع له وكان الصوت يغمره ويلح عليه . وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه ، وكان الصوت يتجنب الفتى يؤيسه من نفسه ويلم به فيكثر الالمام . ولم يكن هذا الصوت يقع فى اذن الفتى بالفاظ كالتى تقع

وفي حين قد هدأ من حوله كل شيء ، واطمأن في نفسه وجسمه كل شيء ، ولكن ماهذا الشخص الغريب يقبل إليه ساعياً إليه في أناة حتى إذا دنا منه ، قال له في صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة . « احفر برة » . وجسم الفتى هادىء مطمئن ، ولكن نفسه ثائرة مضطربة ، ولسانه يتحرك في ثقل ؛ وصوته ينبعث من بين شفتيه خفيفاً رقيقاً بهذه الكلمة : « وما برة ؟ فينصرف الشخص ، وينقطع الصوت . ويفيق النائم وجلا مذعوراً ، معجبا آملا ، ويفكر ويقدر ويتقلب . ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها صامتة ! ويسأل الأرض ولكنها ساكنة ! ويسأل أصنام الكعبة ، ولكنها مغرقة في البله والوجوم ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والارض والأصنام ، فيهيم على وجهه يلتمس في الحركة والاضطراب نسيان هذا الطائف الذي يفزعه ويغريه . ثم يعمل الناس في أمور الحياة ، وينقضي النهار بخيره وشره ، وحلوه ومره ، ويقبل الليل شيئا فشيئا ، فيبسط أرديته السود على مايحيط بمكة من جبال وآكام ، وما يزال يمتد في هذه الأودية حتى يغمر كل شيء لولا هذه المصابيح الضئيلة التي تشب في الارض ، وهذه النجوم القليلة التي تضرب في السماء . وقد لعب الفتى مع السامرين ، فسمع أحاديث التجار عن غرائب الأقطار ، هذا يحدث عن قصور بصرى وعظمتها ، وهذا يحدث عن الخورنق والسدير ، وهذا يصف أخلاق اليمانيين ومكرهم بالتجار ، وهذا يتحدث عن سذاجة أهل الشام وانخداعهم لغربان العرب ، وهذا يذكر ماأفاد من ربح حين باع الأدم في الحبشة ، وهذا يذكر للقوم ماحمل لهم من خمر بيسان . وهم في أثناء هذا كله يتندرون على العجم والاعراب ، ويتفكرون بأحاديث أولئك وهؤلاء ، ويسخرون من أولئك وهؤلاء ، حتى اذا تقدم

الليل ، واطمأن كل شيء — تفرقوا ؛ ونهض الفتى ثقيلا ؛ فمشى إلى بيته متباطئا يود لو فر من النوم ، ويود منع ذلك لو قام فألم به هـذا الطيف .

أنظر إليه انه ليتردد : أيقذف بنفسه فى أمواج النوم هذه التى تتمثل أمام عينيه ؟ أم يبقى على الشاطىء يقظان يداعبه النوم ولا ينام . ليتردد ما استطاع ؛ ليمتنع على النوم ماوسعه الامتناع ، فان هذه الأمواج المصطخبة أمامه تستطيع أن تطغى على الشاطىء فتغمره ، وتغمر معه كل شيء .وكيف يستطيع هذا الفتى أن يمتنع عليها ، وما استطاعت أن تمتنع عليها جباله ،كلها هذه التى تحيط بها من كل ناحية - انظر أترى حركة ؟ اسمع أتحس نباة ؟ كل شيء هادىء ، كل شيء مطمـئن ، فما نبوك وما امتناعك ، هلم إلى النوم ، لاتخف شيئا ، إن هذه الامواج تريح ولا تغرق . أقبل الى هاتين الذراعين اللذراعين اللتين تمتدان إليك ، فتنسى بينهما كل شيء ومن يدرى؟ لعلك تجد بينهما شفاء لنفسك الحائرة وأطبق الفتى جفنيه ، واندفع أمامه ، فاشتملت عليه أمواج النوم كما اشتملت على غيره من الناس والاشياء ، ولـكن ماذ ؟ هذا شخص يتقدم ساعيا هادئاً ،كأنه يمشى على الهواء ـ حتى إذا دنا من الفتى قال فى صوت رفيق غريب ؛ فيه أنس وفيه وحشية : احفر المضنونة ،.جسم الفتى هادىء ، ولـكن صورة من لحيرة قد ارتسمت على جبهته ، وهذا صوت خفيف رقيق ينبعث بين شفتيه ، وهو يقول : « ما المضنونة ! » فينصرف الشخص ، ويفيق الفتى مذعوراً مأخوذاً ، قد أظلم فى نفسه كل شيء ،وأحاط اليأس بعقله وقلبه وضميره ، لايرتفع بصره الى السماء ، ولا ينخفض الى الأرض ولا يمتد الى أصنام الـكعبة ،ولـكنه يدور حائراً .وينهض الفتى وهو يقول

« ما أدرى إلا أنى سأجن لئن أصبحت لآتين الكاهن ؛ فعلى أجد عنده من هذا العارض شفاء ، أقبل أيها الصبح أسرع فى الخطو ارفق بهذه النفس الحائرة، هلم الى سوطك المشرق المضىء ، فبدد به هذه الاشخاص الماثلة ، فرق به هذه الظلال المضطربة من حولى ويقضى الفتى ليلا طويلا ثقيلا ، حتى إذا كست الشمس بضوئها النقى ظواهر مكة وبطاحها ، أسرع الفتى إلى المسجد ، يريد أن يقص أمره على الكاهن ولكنه لايكاد يبلغ مجالس قريش فى فناء المسجد حتى تذهب عنه حيرته ، ويفارقه وجومه ؛ ويمتلىء قلبه قلبه اطمئنانا وثباتاً ماذا ؟ أأزعم للكاهن أنى مجنون ، وتشيع فى هذه المقالة ، ويضحك منى حرب ابن أمية ولداته ، ويتندر على فتيان مخزوم ، كلا ما أكثر هذه الخيالات التى تسكن إلى نفسها فى قبور الموتى وتختبىء فى الكهوف والأغوار ما أضاءت الشمس ، واستيقظت الطبيعة ، فاذا أظلم الليل ، ونام الكون ، وانتشرت هذه الخيالات فى الجو ، فمنها ما يصعد فى السماء يرعى النجوم ؛ ومنها ما يهبط إلى الأرض يروع الناس ، وما أرى أن هذا الطائف الذى يورقنى منذ ثلاث إلا خيالا من هذه الخيالات ، لعله ظل ميت من موتى قريش قد نسيه قومه ، فهم لايزورونه ولا يقرنون إليه ، لعله شيطان من هذه الشياطين التى تلح على الإنس فتتقاضاهم الطاعة . وتخضعهم لسلطانها كرها لعله نذير من أحد الآلهة يطالب بالضحية والقربان . لقد مضت أيام ولم تقدم إلى الآلهة شاة ، ولم ينحر لها جزور ، ولم تصطبغ أرض المسجد بهذا الدم الحار القانى الذى تحب الآلهة لونه ورائحته، إيه ياعبدالمطلب تقرب إلى الآلهة بضحية ترضيهم لعلهم يرضون ، ولعلهم يكفون عنك هذ الشر . وأقبل الفتى على مجلس من مجالس قريش ، فتحدث وسمع ، ولكنه كان شارد النفس ، فلم يطل الحديث ولا الاستماع ، ونهض مولياً فلما أنصرف عن القوم ، قال حرب بن أمية

لمن حوله : « أرأيتم إلى سرى بنى هاشم إنى لأعرف فى وجهه الهم ، لم يحدثنا اليوم عن مآثر أبيه ومفاخر عمه . » ومضى الفتى الى أهله فلما دخل على امرأته أنكرت عودته إليها من الضحا ، فاستقبلته دهشة وهى تقول . « إيه ياشيبة ؟ ماخطبك ، إنى لأنكرك منذ أيام ، أراك مؤرق الليل ، قلق النهار ، قليل الحديث ، طويل التفكير . ولقد هممت أن أسالك مرات ، ولكن خشيت ردك على وانتهارك لى ؛ فانى لأعلم فيكم معشر قريش رقة للنساء ، ودعابة معهن ، ولكن لا أجد عندك ما اجد عند قومك ، فأنت صامت إذا خلوت إلى أهلك ، وانت مقطب الجبين إن أظلك معهم سقف . تحدث عما يحزنك . اخرج عن هذا الصمت الذى لزمته ، كن رجلا من قريش ، أشرك أهلك فيما يعنيك . لقد أذكر يوم أنبأنى أبى أنك خطبتنى إليه ، لقد فرحت بهذا النبا ، لقد كنت اتحدث الى أترابى فى البادية بأنى سأصبح امرأة من قريش أجد من نعمة الحياة ولينها ؛ ومن ظرف الزوج ورقته مالايجدن تحت خيام بنى عامر بن صعصعة ، ولكن وجدت نعمة ولينا ، ووجدت حبا وعطفاً ، ووجدت عناية لا تعدلها عناية ؛ ولم أجد أحب ما كنت أطمح إليه ، لم أجد منك ابتسام الثغر ، ولا انبساط الجبين ، ولا انطلاق اللسان . » قالت ذلك وانتظرت هنيهة ، فأجابها زوجها بصوت هادىء حزين : « عزيز على ياسمراء ماتجدين من حزن ، وما تحسين من خيبة أمل ، إنى لأحبك كما يحب الظمآن ما ينقع غلته من الماء العذب ، إنى لآنس إليك أنسا يزيل عن نفسى كل هم ويحبب إلى الحياة ، ويرغبنى فيها . إنى لأشتاق إلى التحدث إليك ، والاستماع لك ، والأنس بك . ولو خيرت ماعدلت بمجلسك مجلس قريش ، ولا ببيتك فناء المسجد ودار الندوة ، ولكن قوة خفية عاتية طاغية تملك على نفسى ، وتأخذ على كل سبيل ، وتدفعنى الى حيث لاأدرى ولا أريد .

إيه . . . ! إنى لمؤرق الليل قلق النهار ، مفرق النفس منذ ليال ، وإنى لأخشى على نفسى شرا . هذا طائف يلم بى إذا أغرقت فى النوم ، فيأمرنى بصوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة ، أن أحفر شيئاً يسميه طيبة ويسميه برة ، ويسميه المضنونة ، فاذا سألته عما يريد انصرف شخصه ، وانقطع صوته ، وأفقت حائراً مذعوراً ، ولقد هممت — أن أقص رؤياى هذه على الكاهن ، وأن أصف له ماأرى وماأجد ، أشفقت أن يتحدث الناس عنى أنى مجنون ، وأن يتندر بى فتيان قريش فيقولوا : إن بى رئيا من الجن . أشيرى ! ماذا تريدين ؟ » قالت : « هون عليك ، ولا تمعن فى الخوف ، ولا تسرف فى الإشفاق ، ماأكثر مايلم هذا الطيف بالناس عندنا فى البادية ، فلايخافون ولا يأبهون ، ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب أنت إلى الآلهة فى غير توسط الكاهن ، ولا توسل به ! قم فضح لهم ، وقرب إليهم ، فسيرضون ، وسيرضى الفقراء الجائعون ، وسيغيظ ذلك قوما من قريش . »

وما هى الا ساعات حتى كان فناء المسجد يموج بالناس ، فيهم الفقراء وقد أقبلوا من البطاح والظواهر ، وفيهم الأغنياء وقد أقبلوا يقدمون الضحايا بين أيديهم . هؤلاء يتنافسون أيهم يغلى الضحايا ويكثر منها ، وأولئك ينتظرون ، ويمنون أنفسهم بقديد اللحم وجيده ، لقد سمعوا أن عبد المطلب يريد أن يضحى ، وأن بنى هاشم قد حلفت لذلك ، فكرهت أمية ألا تفعل فعلهم ، وكرهت مخزوم أن تسبقها عبد مناف ، فأقبل أشراف قريش يستبقون فى التضحية ، ويتنافسون فى القربان ، تنافسوا ! تنافسوا أيها الأشراف ! واستبقوا أيها الأغنياء ! إن فى ذلك شبع الفقراء ، وسعادة الأشقياء .

وقضت مكة يوما جليلا كثر فيه الطعام ، وكثر فيه المرح ، ورضيت

فيه الأصنام ، وسعد الفتى بما رأى ، ونسى الفتى ما كان يهمه وينغصه ، وقدر أن قد صرف عنه الشر ، ورد عنه المكروه ، ورضيت سمراء فتحدثت كثيراً وسمعت كثيرا ، وأضحكت زوجها وابنها الحارث بملح الأعراب ، ونوادر البادية . وقالت لزوجها — وهى تمسح رأسه : « أحبب إلى بهذا الطائف الذى أرقك وأضناك ، فقد حقق أملى ، وأرانى ما كنت أطمح إليه ، ورسم فى قلبى صورتك جميلة خلابة ، فلن أراك منذ اليوم — مهما تكن الخطوب إلا باسم الثغر ، منبسط الجبين ، منطلق اللسان . وهل السعادة إلا لحظات قصار تصيبنا ولم ننتظرها ، ولم نقدر لها حسابا ؟ فما أسعد القلب الذى يحتفظ بهذه اللحظات حين تمر ، ويتخذها ذخراً للأيام وما يعرض فيها من الخطوب ، قال عبد المطلب : « إذا فأنت راضية . إن رضاك ليقع من نفسى المحزونة موقع الماء من الأرض الجدبة . انعمى بما أنت فيه ، وانتظرى أن يقدر الله لك خيراً منه ، فلو قد صرفت عنى هذه القوة العاتية الطاغية لأريتك كيف نطيب الحياة ، وكيف ترق حواشى العيش . »

وأوى عبد المطلب إلى مضجعه راضيا مسروراً ، واستقبل النوم مبتهجا له ، راغبا فيه . ولكن هذا الشخص يقدم عليه ساعيا فى هدوء ، كأنما يمشى فى الهواء ، حتى اذا دنا منه انحنى عليه ، ووضع على جبهته يدا باردة خفيفة ، وقال فى صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « احفر زمزم . » واضطرب جسم الفتى كله ، واضطربت نفس الفتى كلها ، وانفتحت شفتاه عن هذه الكلمة : « وما زمزم ؟ » قال الطيف بصوت رفيق مؤنس ، قد فارقته الغرابة والوحشة ، ومازجته سخرية ورحمة : « لا تنزح ولا تزم ، تسق الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم . »
قال عبد المطلب : « الآن قد وعيت . » فتولى عنه الطيف باسما وهو يقول :

« لله أنتم أيها الناس ! لايكفيكم الوحى ، ولا تفقهون إلا سجع الكهان .
رويداً ؟ عما قريب سيضيء الصبح » . ونهض مبتهجا مسرورا .
فلما أصبح دخل على سمراء مشرق الوجه ، مضيء الأسارير ، فقالت وهى تسعى إليه : « أيهما أحب إلى نفسى ؛ إشراق وجهك أم إشراق الشمس؟ ما أرى إلا أنك قضيت ليلا هادئا . » قال : أنعمى صباحا ! لقد طابت الحياة منذ اليوم ، إن هذا الطائف — الذى يلم لى منذ ليال — طائف خير بالنعمة والغيث ، إنه يأمرنى أن أحتفر فى فناء المسجد بئراً ، فلأفعلن منذ اليوم ، ولئن ظفرت بها ليشربن الحجيج فى غير جهد ولا عسر . هلم ياحارث ! خذ معولا مكتلا ، ومسحاة ، واتبع أباك . »

وكان ذلك إيذانا ببدء عهد جديد فى العرب ، عهد تقديس الشعائر ، والاعتراف بنعمة الله على العرب وعلى قريش ، وشكر الله على ماأفاض على المكيين من خير وماء موصول ، وعلى ماسيفيضه عليهم كذلك فى مقبل الأيام من خير ونعمة ومجد ، برسالة محمد بن عبد الله

أما نقطة التحول ، فكان مظهرها إيمان أبى بكر برسالة محمد صلوات الله عليه وسلم ، وأبو بكر ينتسب إلى قبيلة تيم بن مرة ، ويلتقى فى نسبه بالنبى ، ويرتفع معه فى النسب إلى عدنان

كان يسكن فى حى (خديجة) زوج الرسول ، وكان الرسول يسكن معها فى منزلها ، ومقامه بهذا الحى هو الذى ربط بينه وبين محمد برابطة الصداقة ، وساعد على ذلك تقاربهما فى السن ، إذا كان يصغر الرسول بنحو سنتين وأشهر ، واتفاقهما فى الرغبة عن عادات قريش وعقائدها فلما بعث الله رسوله بالإسلام التفت أول ماالتفت إلى صديقه أبى بكر فدعاه ، فما تردد لحظة

وكان أول من آمن به ، ودعا أبو بكر أصحابه الى الدين الجديد ، فآمن بدعوته السابقون الأولون من المسلمين .

وكان أبو بكر تاجراً ، يبيع الثياب ، ويربح من تجارته كثيرا ، والتجارة تقتضي من صاحبها أن يكون كثير الصلات بالناس ، يلتمس رضاهم ، ولكن أبا بكر آثر عقيدته التي لا ترضاها قريش ، وجمهور العرب ، على رضاهم والتحبب إليهم ، ولم يبال ما يصيب تجارته من كساد ، بسبب خصومته لهم ، وانقطاع صلاته بهم ، على أنه لم يكتف بأن يكون مؤمنا في نفسه ، بل كان داعية يدعو الناس إلى الإيمان ، فهذا مما يدعو إلى العجب من قوة إيمانه ، وما كسبه الاسلام بدخول أبي بكر فيه ، ويعادل ما كسبه بدخول عمر بن الخطاب القوي ، وحمزة عم النبي ، وكلاهما بطل شجاع ، والصديق ، هو أول من أيد الله به دينه ، فتصدى معه لحمل راية الجهاد منذ أول لحظة ، وأما هذان فدخلا في الدين بعد دخول طائفة من بيوتات قريش فيه .

وكان إسلام أبي بكر عزة للاسلام ولم يقصر أبو بكر عمله على الدعوى إلى دين الله ، وعلى أن يبذل من ذات نفسه ، فانه كان يبذل ماله أيضا في سبيل دينه ، فينفق على الضعفاء من المسلمين الذين دخلوا في دين الله ، ويشتري الأرقاء المسلمين من سادتهم ، ويحررهم ، مثل بلال بن رباح مؤذن النبي ، وقد كان عنده من مكسب تجارته أربعون ألف درهم ، فأفنى معظمها في ذلك ، وحينما هاجر إلى المدينة لم يكن معه منها سوى خمسة آلاف . وكان يتعرض لقريش التي كانت تؤذي الرسول ، فحينما وثبوا على النبي في الكعبة وقالوا له : أنت الذي تقول في آلهتنا كذا وكذا ، وخنقوه بثيابه ! دفعهم أبو بكر عنه وبكى وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ولما أسرى بالرسول

ليلا إلى المسجد الأقصى بيت المقدس ، وأخبر النبي قومه صباحا بما شاهد هناك ، وجدتها قريش فرصة للنيل من محمد ، فبين مكة وبين بيت المقدس مسيرة شهر بالجمال ، فكيف يذهب محمد إليه ويعود في ليلة ، وأخذت تسخر منه لذلك ، وتشكك نفر من المسلمين ، واستبعدوا ذلك تأثرا بدعايات قريش

ولما أتوا أبا بكر يبلغونه ماتحدث الرسول به ، قال على الفور : والله لئن كان قد قاله لقد صدق ، إنه ليخبرني الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ، وجاء أبو بكر إلى النبي في المسجد ، وسمع حديث رسول الله عن الإسراء ، فلما أتم النبي صفة المسجد الأقصى ، قال له : صــــدقت يارسول الله ، ومن يومئذ دعاه النبي بالصديق . وهذا موقف عظيم من أبي بكر ، فلو أظهر التردد لحظة ، وشك فيما تحدث به الرسول ، لكان موقفه خطرا على الإسلام ، ولكن الله ثبته ليحفظ به عقائد الكثيرين من أصحابه ، وليمضي الإسلام قدما ، يزداد كل يوم انتشارا ، وكلمة أبي بكر تدل على إدراك تام للوحي والرسالة ، لايؤتاه كثيرون ، فما يستبعد على قدرة الله شيء . ونزول الوحي يهون بجانبه أمر الإسراء

وموقفه كذلك من هجرة الرسول عظيم ، فانه انتظر ولم يهاجر إلى المدينة مع من هاجر من المسلمين ، ولما أذن له الرسول أن يصاحبه في هجرته رافقه معرضا نفسه للخطر ، فان قريشا عقدت العزم على أن تقتل محمد ان قبضت عليه في هجرته ، وهي لاشك تقتل من هاجر معه ، لأنه شارك في عمله وسهل له طريق الهروب من وجه قريش . واختبأ في الغار معه ، وشاهد قريشا تبحث عن النبي بجوار الغار ، وخاف أن تهتدي قريش للرسول ، ومرت عليه ساعة رهيبة ، لم تمر على إنسان قبله ولا بعده : تساءل فيها : ماذا يكون حال الدين الناشيء إذا قبضت قريش على صاحبه وداعيته ؟وماذا

يكون موقفه إذا امتدت أيدى العدو إلى النبى فآذته ؟ والنبى هو كل شىء فى حياته . ولذلك حزن أبو بكر غاية الحزن فى الغار ، لا خوفا على نفسه ، وإنما خوفا على رسول الله الذى يرافقه ، ويخشى أن تطلع عليه الفئة الباغية .

ونزل أبو بكر « بالسنح » وهى ضاحية من ضواحى المدينة ، بدار « خارجة بن زيد » وآخى النبى بينهما ، وتزوج أبو بكر بنته . وأما أسرة أبى بكر فنزلت المدينة نفسها ، بجوار دار أبى أيوب الأنصارى ، التى نزل فيها الرسول . ومن أسرته عائشة التى تزوج بها الرسول بالمدينة ، حين مقدمه إليها . ورافق ابو بكر الرسول فى جميع غزواته لم يفارقه مرة وكان منه بمنزلة الوزير ، وكان ايمانه الصادق يتجلى فى جميع مواقفه ، و يعبر عن كل أحواله النفسية ، فهو يوم « بدر » يرى النبى يسأل ربه النصر ، ويبالغ فى السؤال فيقول له أبو بكر : يارسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجزلك ماوعدك . وكان مع عقيدته المتمكنة من نفسه ، لا يندفع بالأذى ، شأن المتعصبين لرأى فى زماننا ، فهو يميل إلى الرحمة ماوجدها ، فحب الحق ، وحب الرحمة ، هما مبدآه . فحينما شاوره الرسول فيما يفعل بأسرى قريش فى « بدر » أشار عليه بأن يقبل الفدية منهم ويطلقهم ، بينما أشار عمر بقتلهم

وهكذا ظل أبو بكر فى جوار الرسول ، إن حارب وإن سالم ، حتى مرض الرسول مرضته الأخيرة ، فقدمه إلى الصلاة بالمسلمين ، وقال فيه فى أثناء خطبة خطبها أواخر أيامه : « إنى لاأعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه . وإنى لو كنت متخذا من العباد خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده » .

ولما توفى محمد كان أبو بكر ساعة توفى الرسول فى داره بالسنح ، وبلغه الخبر ، وجاء يجر إزاره ، وقد بدا عليه الحزن ، ودخل إلى حجرة عائشة بنته

فوجد الرسول مسجى فوق سريره ، فكشف عن وجهه ، ولما تحقق وفاته ناجاه بكلمات مؤثرة : « بأبي أنت وأمي يارسول‌الله ، ما أطيبك حيا ، وما أطيبك ميتا ! » ثم خرج من الدار فوجد عمر ، قد أذهلته الفاجعة . وأخذ يخطب في الناس . ويقول « ما مات رسول الله ، ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين عاما ، ثم رجع إلى قومه ، بعد أن قيل قد مات » . وقد أخذ يهدد عمر من قال بموته . ولكن أبا بكر قام في الناس فقال : « أيها الناس من كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبدالله ، فان الله حي لا يموت » . ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل : أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » . فلما سمع عمر هذه الاية ، خر إلى الأرض ، ماتحمله قدماه ! . فهذا أبو بكر الرقيق ، الدامع العينين من الكلمة المؤثرة ، لا يذهله هذا الموقف الفاجع في أحب الناس إليه ، كما أذهل عمر الشديد ! لا شك أن الله ميزه بفضيلة راجحة هي قوة مواجهته للحقائق ، وأنه يملك نفسه ، حتى في أشد الأحوال . وقد اقترنت هذه القوة النفسية ، بصفة أخرى لا تقل عنها جلالا ، هي بعد النظر إلى المستقبل .

وكانت تدب روح العصبية أحيانا بين المهاجرين والأنصار ، كل يتعصب لقبيلة ، في حياة الرسول ، ولكن ما تلبث شخصية الرسول العظيمة أن تظل عليهم ، فتطفىء عصبيتهم ، وتعيدهم إخوانا متحابين . وقد حدث حين فتح مكة ، أن تحدث الأنصار فيما بينهم ، أن الرسول ربما استقر في بلده الأولى ولا يعود إلى مدينته . ولكن الرسول رد عليهم بقوله : « المحيا محياكم والممات مماتكم » . وحدث في غزوة حنين ، حينما وزع النبي الغنائم ، وأجزل العطية

لمن تألفهم من قريش أن غضبت جماعة من الأنصار وقالوا : أعطى قومه وتركنا ، وسيوفنا تقطر منهم دما ! ، ووعظهم النبي وبين لهم سبب إغداقه على قريش ، فرجعوا إلى أنفسهم باكين ، خاشعين نادمين . اذن كانت مناقسة بين المهاجرين والأنصار ، ومقارنة بين النظراء . فلما توفى الرسول صاحب الدين ، كان لابد أن يتساءل المسلمون : من الذى يقوم مكانه ، ويتحمل العبء بعده ؟ وهنا تطلع الأنصار الى أنفسهم ، ورأوا أنهم أحق بهذا الامر لأنهم الذين نصروا الرسول بسيوفهم ، ونشروا دينه فى القبائل ، فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، ليتشاوروا فى هذا الأمر وينصبوا أحدهم خليفة للرسول

وسمع المهاجرون باجتماع الأنصار هناك ، فذهب عمر إلى أبى بكر وأخبره الخبر ؛ وكان الصديق مشغولا بتجهيز الرسول لأنه من آل بيته ، فهو زوج ابنته . ولكنه لما سمع الخبر الخطير الذى يتوقف عليه أمر المسلمين ، ترك جهاز الرسول لآله وهم كثير ، وذهب مع عمر وأبى عبيدة إلى السقيفة . وسمعوا خطب الأنصار : سعد بن عبادة ، والحباب بن المنذر ، وهما يطالبان بأن يكون الخليفة منهم ، ويهم عمر بالكلام ، ويقدر الصديق شدة عمر ، وأن الموقف يحتاج إلى لين ولباقة ، فيخطب خطبة يظهر بها أحقية المهاجرين بالخلافة لانهم آل الرسول وقومه ، وهم من قريش سادة العرب من القديم ، ولا تخضع العرب لغيرهم ، وهم أول من عبد الله فى الارض ، ومناهم فى آخر الخطبة أن يكون المهاجرون الأمراء ، والانصار الوزراء وتتكرر الخطابة من الانصار بعد أبى بكر ، ويرجعون خطوة عما طالبوا به أولا ، ويسألون : أن يكون من المهاجرين أمير ، ومن الانصار أمير . ويخطب عمر ، وينفى أن يجتمع أميران فى قرن ، ويؤيد أبا بكر ، ويخطب ، أبو عبيدة ، فيذكرهم أنهم كانوا أول من

آمن برسول الله ونصره ، ويناشدهم فى عطف ألا يكونوا بعد وفاته أول من بدل فى دينه وغير . وتؤثر كلمته فى فريق من الانصار ، فيقوم واحد منهم ويعلن أن الخلافة للمهاجرين ، وأنه لا ينازعهم هذا الامر ، فهم أهل الرسول ، وأحق الناس به . ولما كانت الانصار تتألف من قبيلتين : هما الاوس والخزرج ، خشيت الاوس أن تنفرد بها الخزرج ، فتكون لها بذلك مزية إلى الابد . فسكتوا عن تأييد صاحبهم للخلافة وهو « سعد بن عبادة » . وادرك عمر أن الوقت يجب أن لا يطول ، وان الخلاف يجب أن ينهى ، فنادى بصوته الجهورى : ابسط يدك أبا بكر لأبايعك ، وبايعه عمر ، وبايعه بعده سائر المسلمين .

وكان يوم السقيفة من الأيام العصيبة فى تاريخ الاسلام ، ولولا تأييد الله للاسلام لذهبت ريحه ، ودالت دولته

وكان الأنصار يتطلعون إلى الخلافة بعد وفاة الرسول وكانوا لذلك يحقدون على المهاجرين استئثارهم بالأمر دونهم ، وبدت هذه الروح ظاهرة حين أجزل الرسول العطاء للمؤلفة قلوبهم من أهل مكة بعد فتح مكة وغزاة حنين ، فقد تحدث بعضهم إلى بعضهم وقال قائل منهم « لقى والله رسول الله قومه » فلما بلغت هذه المقالة النبى طلب إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج أن يجمعهم إليه ، فلما اجتمعوا قال لهم : « يامعشر الأنصار : ماقالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها فى أنفسكم ؟ . ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فاغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم . » فأطرق الأنصار لما سمعوا — وكان كل جوابهم « بلى . لله ولرسوله المن والفضل . » ثم قال لهم الرسول بعد ذلك : « أوجدتم يامعشر الانصار فى لعاعة (١) من الدنيا تألفت بها

---

(١) اللعاعة : الخصب والدنيا ، والجرعة من الشراب والكلا الخفيف رعى أو لم يرع ويقصد بها هنا الشىء الطفيف القليل

قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ! ألا ترضون يامعشر الانصار أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحابكم فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعبا (١) وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الانصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . » . . وبهذه السياسة الرشيدة الحكيمة اطمأن الأنصار وقالوا « رضينا برسول الله قسما وحظا » .

ولما توفى الرسول عليه السلام كان من الطبيعى إذن وقد رأيت نظرة الأنصار وتطلعهم إلى الخلافة أن يسرعوا إلى التفكير فى أمرها وأن يجتمعوا فى السقيفة .

ويحسن بنا ونحن نتحدث عما قيل من خطب فى هذا اليوم أن نمهد للموضوع بمقدمة تاريخية موجزة .

والسقيفة الظلة التى كان المسلمون يجتمعون فيها وهم بالمدينة ، وهى أشبه ماتكون فى أيامنا الحاضرة بالنادى السياسى الذى يجمع شمل الحزب ليدير أموره فيه ويعالج المسائل التى تعرض له .

ويوم السقيفة من الايام الخالدة على وجه الدهر لأنه كان يوماً فاصلا بين وجهات النظر المختلفة ، فقد كان للمهاجرين رأى فيمن يتولى الأمر بعد الرسول يختلف عن رأى الأنصار فى الأحق بهذا الأمر من بعده ، وفى هذا اليوم الخالد وضع أساس الحكم الإسلامى بعد وفاة الرسول كما وضع النظام الذى يجب مراعاته والشروط التى يجب توافرها فى اختيار الخليفة

---

(١) الشعب : بكسر الشين الطريق وبفتحها : الجماعة والأمة

وأنه لايكون من غير قريش .

واجتماع الزعماء لحل مشكلاتهم السياسية أمر قديم معروف عرفه الإسلام فى هذه السقيفة كما عرفه العرب فى دار الندوة بمكة حين أجمعوا أمرهم على نقض الصحيفة التى قاطعوا بها بنى هاشم لما أصابهم من العنت والمشقة ، وحين أجمعوا على قتل الرسول لما أعيتهم الحيل فى ابطال دعوته وصرفه عنها . فاذا كانت ساسة العرب والأمم الآن يجتمعون فى فترات مختلفة على هيئة مؤتمرات ، حينما يتلبد جو السياسة بالغيوم ، فان هذه سنة طبيعية لجأ الناس إليها قديما ولايزالون يلجئون إليها فى عصورنا الحديثة .

وزعماء هذا المؤتمر ستة نفر من أبطال الصحابة وكبار المسلمين الذين امتازوا برجاحة العقل وسداد الرأى والذين لهم بين قومهم المكان الأول من الإجلال ، اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعد ليتبادلوا الرأى فيمن يتولى الامر بعد الرسول ، وكان سعد بن عبادة فى داره يشكو مرضا فأخرجوه إليهم ليكون صاحب الرأى فيهم ولما خطب خطبته التى سنذكر فيما بعد ، قالوا له « وفقت فى الرأى ، وأصبت فى القول ، ولن نعدو مارأيت ، نوليك هذا الامر . »

غير أن هذا القول لم يكن صادراً عن اجماع منهم فان بنى الاوس أثاروا اعتراضا له وجاهته ، إذ قال قائل منهم : « فان أبى المهاجرون من قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الاولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعونا هذا الامر بعده ؟ » فأنصت الحاضرون إلى هذا القول ورأوا فيه من الوجاهة مالايستطاع دفعه عندئذ ، فقالت طائفة منهم : إن أبوا هذا « فإنا نقول : إذن منا أمير ، ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا الامر أبداً . »

ولما سمع ابن عبادة هذه المقالة آلمه ذلك — فقد كان يطمع أن يكونوا جميعا

أوسهم وخزرجهم، على رأي واحد من التمسك به ، وفاته أن الأوس لا يسلمون عن رضا واختيار باختياره خليفة وحاكما فالنزاع بينهم قديم على السلطان والحكم . وحين كان الانصار فى سقيفة بنى ساعدة يتداولون أمرهم بينهم يريدون أن يستأثروا بالسلطان على العرب كان عمر بن الخطاب وأبو عبيدة وطائفة من كبار المسلمين يتحدثون فى المسجد عن وفاة الرسول وكان أبو بكر وعلى بن أبى طالب وأهل بيت النبى يحيطون بجسمان الرسول يعدون العدة لتجهيزه ودفنه — وبدأ ابن الخطاب منذ وفاة الرسول يفكر فيما عسى أن يكون له الامر من بعده ولم يدر بخلده أن الانصار سبقوه إلى التفكير أو يريدون أن يستبدوا بالامر دون الناس وبينما هم كذلك إذ جاءهم نبأ اجتماع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة فأرسل عمر إلى أبى بكر يخبره بما وصل إليه من اجتماع الأنصار فى السقيفة وأنهم يريدون أن يولوا هذا الأمر سعداً وأن أحسنهم مقالة من يقول : « منا أمير ومن قريش أمير » ، فلما سمع أبو بكر هذه المقالة مضى مع عمر مسرعين إلى السقيفة والأنصار لا يزالون فى حوارهم ولم يبايعوا سعداً ولم يقطعوا برأى فى ولاية الامر ودهش الانصار حين رأوهم فأمسكوا عن القول ، ولما اطمأن المجلس بالمهاجرين الثلاثة خرج الانصار من صمتهم ثم أراد عمر أن يتكلم فمنعه أبو بكر خشية أن يشتد فى قوله أو يعنف فى خطابته ، والموقف ليس موقف عنف ولا شدة بل موقف حزم وحسن تصرف ، فنهض أبو بكر يلقى خطبته الخالدة التى ستذكر فيما بعد وقد استراح الجميع إليها لما فيها من الحق والوجاهة غير أن بعض الانصار حاول أن يثير حمية اخوانهم ويستفزهم إلى الاستمساك بحقهم فتوجه إليهم أبو بكر مرة ثانية مخاطبا لهم : أيها الناس نحن المهاجرين أول الناس إسلاما وأكرمهم احسابا . . . . . . إلى أن يقول : فلن نعرف هذا الامر الا لهذا

الحى من قريش ، فنحن الامراء وأنتم الوزراء .

ولما سمع الانصار هذه الجملة الأخيرة خشى بعض الانصار أن تؤثر فى اخوانهم فينقادوا ، فقام الحباب بن المنذر بن الجموح يحرض قومه على الخلاف وعدم الاستماع لما دعى إليه أبو بكر وقال خطبته التى سنذكرها فيما بعد ولم يكد الحباب يفرغ من حديثه حتى نهض عمر وألقى خطبته ثم أجاب الحباب بن المنذر عمر بن الخطاب بخطبة أخرى فيها شدة وعنف ودعوة إلى الثورة على المهاجرين وإجلائهم عن هذه البلاد وأخذ النزاع يشتد بين عمر والحباب لولا أن أبا عبيدة بن الجراح تدخل فى الأمر وكان قد لزم الصمت إلى تلك اللحظة وقال موجها حديثه إلى أهل المدينة : « كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير » ، وانتهز بشير بن سعد هذه الكلمة من أبى عبيدة فقام بين قومه وقال « يامعشر الانصار الخ » .

على أنه بعد أن تبين للمجتمعين حجج الفريقين ورأى المنصفون منهم أن حجج المهاجرين أقوى انتهز أبو بكر هذه الفرصة وأراد أن يفصل فى الأمر بالدعوة إلى عمر أو إلى أبى عبيدة فقال : « هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهم شئتم فبايعوا » ، فاتسع المجال أمام المبايعين واختلفوا فيمن يفضلون ولكن عمر لم يدع لهذا الخلاف أن تنبت شجرته فنادى بصوته الجهورى « ابسط يدك أبايعك » ، وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول « ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت ياأبا بكر بالمسلمين فأنت خليفة الله فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا » ، وبايع أبو عبيدة وهو يقول (إنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك؟) . وأسرع بشير بن سعد فبايعه وعند ذلك ناداه الحباب بن المنذر : (يا بشير بن سعد

عققت ، ما أحوجك إلى ما صنعت ؟ نفست الامارة على ابن عمك (يريد ابن عبادة) قال بشير (لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم) — والتفت أسيد بن حضير زعيم الأوس إلى ما صنع بشير بن سعد وقال له (والله لئن وليتها الخزرج عليكم لازالت لهم عليكم بذلك الفضل ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا ، قوموا فبايعوا أبا بكر .) وقام الأوس فبايعوا أبا بكر . ثم قام من الخزرج من اطمأنوا إلى كلام بشير يبايعون مسرعين حتى ضاق بهم المكان من السقيفة ، وظل سعد ممتنعا من المبايعة حتى مات أبو بكر

ومن يوم السقيفة لم يبق للأنصار مطمع فى ولاية أمر المسلمين لأن الخلافة لأبى بكر على النحو الذى رأيت ، ثم عهد أبو بكر من بعده إلى عمر ، ثم اختير عثمان ثم كان الخلاف بين على ومعاوية والأنصار فى ذلك كله ليس لهم إلا ما لسائر العرب ، وكأنما آمنوا بقول أبى بكر من أن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، وعاشوا فى كنف المهاجرين مطمئنين إلى وصية رسول الله فى مرضه الأخير حين قال : « يا معشر المهاجرين استوصوا بالانصار خيراً فإن الناس يزيدون والانصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتى التى أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » .

خطبة سعد بن عبادة :

رأيت مما ذكرناه أن أول من اجتمع فى سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة الرسول هم الأنصار وأن أول خطبة ألقيت فى هذا الجمع كانت خطبة سعد ابن عبادة يلقيها ابنه أو بعض بنى عمه إذ كان مريضا لا يستطيع أن يسمع القوم كلهم كلامه فكان يتكلم ويحفظ الرجل (ابنه أو ابن عمه) قوله فيرفع صوته :

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : (يامعشر (١) الانصـــار (٢) لكم سابقة (٣) فى الدين وفضيلة (٤) فى الإسلام ليس لقبيلة من العرب . إن محمدا عليه الصلاة والسلام لبث بضع عشرة سنة (٥) فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع (٦) الانداد (٧) والأوثان (٨)، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا (٩) رسول الله ولاأن يعزوا (١٠) دينه ، ولاأن يدفعوا عن أنفسهم ضيما(١١) عموا (١٢) به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولاصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لاعدائه ، فكنتم اشد الناس على عدوه من غيركم حتى استقامت(١٣) العرب لأمر الله طوعا وكرها وأعطى البعيد المقادة (١٤) صاغرا (١٥) داخرا(١٦)

---

(١) المعشر : الجماعة : وأهل الرجل . (٢) الانصار : سكان المدينة الذين أووا الرسول ونصروه . (٣) يقال له سابقة فى هذا الأمر : أى سبق الناس إليه . (٤) الفضيلة : الدرجة الرفيعة فى الفضل (٥) البضع مابين الثلاث إلى التسع ويراد به هنا المدة التى أقامها الرسول فى مكة يدعو أهلها إلى الإيمان وكانت ثلاث عشرة سنة .(٦) الخلع : الترك . (٧)الأنداد : جمع ند وهو النظير والمثل . (٨) الوثن : الصنم .(٩) يمنعوا : يدفعوا عنه الاذى (١٠) يعزوا دينه : أى ينصروه ويقووه .(١١) الضيم : الذل . (١٢) عموا به : شملهم (١٣) استقامت : أى انقادت العرب وخضعت . (١٤) المقادة: القياد . (١٥) صاغرا : ذليلا . (١٦) داخرا : من دخر كنع وفرح دخرا ودخورا صغر وذل .

حتى أثخن (١) الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ودانت (٢) بأسيافكم له العرب . وتوفاه وهو عنكم راض وبكم قرير (٣) عين ، واستبدوا (٤) بهذا الامر (٥) دون الناس فانه لكم دون الناس) .

خطبة أبي بكر :

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله بعث محمداً رسولا إلى خلقه وشهيداً على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة ، وإنما هي من حجر منحوت وخشب منجور ، ثم قرأ : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى » ، فعظم على الناس أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والايمان به والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم واجماع قومهم عليهم ،فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله والرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم ، وأنتم يا معشر الانصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الاسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته وفيكم جلة

(١) أثخن فلان فلانا أوهنه والمراد أخضعه ومنه قوله تعالى (حتى إذا أثخنتموهم) أي غلبتوهم وكثر فيهم الجراح .

(٢) دانت خضعت . (٣) يقال قرت عينه تقر بالكسر والفتح قرة وقرورا : بردت وانقطع بكاؤها أو رأت ما كانت متشوقة اليه .

(٤) استبدوا : تفردوا به واجعلوه لكم وحدكم دون غيركم

(٥) بهذا الامر أي الخلافة والحكم .

أزواجه وأصحابه فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لاتفتاتون بمشورة ولاتقضى دونكم الأمور » (١)

---

(١) المفردات : الرسول المبلغ عن الله تعالى أوامره ونواهيه . الشهيد: الشاهد ، والأمين فى شهادته الذى لايغيب عن علمه شىء . العبادة : الخضوع . يوحدوه يفردوه بالعبادة دون غيره . شتى : كثيرة . يقال قوم شتى أى فرق من غير قبيله . الزعم: يطلق على القول الحق والباطل والكذب فيزعمون هنا . أى يقولون قولا باطلا . الشفاعة: الوساطة لدى شخص ليحمله على العناية بالمشفوع له . نجر الخشب : نحته ومعنى الآية الكريمة أنهم يخضعون ويعظمون مالا يستحق التعظيم لأنه لاينفع ولايضر ذلك زاعمين أنها تقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده — الزلفى : والزلفة : القربة والمنزلة . المهاجر : هو من هاجر من مكة إلى المدينة هربا بدينه . واسى فلان فلانا : خفف عنه بعض مايلقاه إما بمال يبذله له أو بتحمله بعض مايلاق من الأذى فان المشاركة فى نوع من التخفيف فقوله والمواساة له: أى أنهم كانوا يأسونه فى تحمل الأذى . زار: من زرى عليه زراية : عابه . استوحش وجد الوحشة . والوحشة الخوف والهم شنف الناس : أى إبغاضهم وتنكرهم من قولهم شنف له كفرح أبغضه وتنكره . ومعنى إجماع قومهم عليهم: اتفاقهم على إيذائهم والتنكيل بهم . عشيرته : جماعته ، وقوله وأحق الناس : أولى به من غيرهم . سابقتهم : أى الى سبقهم إليه دون غيرهم . جلة : يقال قوم جلة عظام سادة ذوو أخطار . لاتفتاتون بمشورة : أى لايعمل دون مشورتكم وأمركم شىء ولايقطع برأى دونكم .

خطبة أبي بكر الثانية :

وهي ثاني خطبة له حين حاول بعض الانصار أن يستثير حمية اخوانهم ويستفزهم الى نداء العصبية حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ! نحن المهاجرون أول الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة في العرب ، وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى «والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان » فنحن المهاجرون وأنتم الانصار اخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لاتدين العرب إلا لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم مامنحهم الله من فضله (١)

---

(١) المفردات — الحسب : الشرف الثابت في الآباء أو الفعال الصالح، وكرم الاحساب يريد به شرف الآباء وطهارتهم — ومعنى أوسطهم دارا — انهم في بقعة من الأرض متوسطة بين البلاد العربية ومثل هذه البلدة تكون عادة مجتمع العرب ومحل اكبارهم واجلالهم — ويقصد من حسن الوجوه شرف الفعل ونبل الخلق ومعنى أكثر الناس ولادة في العرب: أنهم متشعبون في القبائل العربية فعصبياتهم عظيمة وعشيرتهم قوية تحمي الملك وتدفع عنه . وأمسهم رحما برسول الله : أي أقربهم قرابة إليه ، يقال بينهم رحم ماسة أي قرابة قريبة ، وقدمست بك رحم فلان ، وحاجة ماسة مهمة . الفيء : الغنيمة والخراج . آواه : أنزله في داره . تدين : تخضع من دان يدين ذل وأطاع . الحي : بطن من بطون العرب . لاتنفسو : من نفس عليه بخير كفرح حسده ونفس عليه الشيء نفاسة لم يره أهلا له .

خطبة الحباب بن المنذر :

ثم قام الحباب (١) بن المنذر بن الجموح فقال : يامعشر الانصار : أمسكوا عليكم أمركم فان الناس فى فيئكم وفى ظلكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، وأنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والمنعة والتجربة، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناظر إلى ماتصنعون ولاتختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم . فان أبى هؤلاء الا ماسمعتم فنا أمير ومنهم أمير (١) .

خطبة عمر بن الخطاب :

وهى التى رد بها على الحباب بن المنذر ، قال : وهيهات لايجتمع اثنان فى قرن ، والله لاترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لاتمنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ، ولنا كذلك

(١) — املكوا عليكم امركم : أى لاتجعلوا لغيركم سلطانا عليكم . فيئكم وظلكم : أى كنفكم ورعايتكم ، ومعنى لن يجترىء الخ : أى لن يجد انسان فى نفسه الشجاعة على الخروج عن سلطانكم . ان يصدر الناس الخ : أى لايقطعوا أمرا إلا عن مشورتكم ورأيكم ، فان الصدر فى الأصل الرجوع يقال صدر يصدر رجع ومن هذا طواف الصدر أى الرجوع من مكة إلى أوطانهم . العزة : القوة ، الثروة كثرة المال ، أولو : أصحاب . المنعة : ان يكون للانسان من عشيرته وقبيلته من تعدى غيره عليه ، البأس القوة والشدة فى الحرب النجدة : القتال والشجاعة والشدة والاغاثة ، ومعنى ينتقض عليكم أمركم : أى يصبح امركم مفرقا بعد أن كان محكما باتفاقكم . هذا هو الحباب بن المنذر من الخزرج يقال له ابو عمر شهد بدرا وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة كما شهد المشاهد كلها مع رسول الله توفى فى خلافة عمر بن الخطاب .

على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين. من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط فى هلكة (١)

خطبة الحباب بن المنذر :

وهى التى رد بها على عمر بن الخطاب قال : « يامعشر الأنصار: املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فان أبوا عليكم ماسألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فانه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة » . (٢)

فقال عمر : « إذن يقتلك الله » قال : « بل إياك يقتل » . « فقال أبو عبيدة يامعشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير »

---

(١) المفردات — هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بعد . القرن : الجيل . أمره جعله عليه أميراً ، وقوله : لنا خبر مقدم والحجة مبتدأ مؤخر . الحجة الظاهرة : البرهان الواضح السلطان المبين : الدليل الذى لا يستطاع انكاره . وقوله من ذا ينازعنا استفهام انكارى بمعنى النفى . وجملة ونحن أولياؤه وعشيرته جملة حالية . مدل بباطل : من أدلى بحجته أى قدمها متجانف من الجنف وهو الميل والجور ، والاثم الذنب

(٢) المفردات : أبى عليه ماسأل : أى منعه ماطلب . أجلوهم أى أخرجوهم من هذه البلاد . جذيلها : تصغير الجذل وهو أصل الشجرة وعود ينصب للابل الجربى لتحتك به والمحكك: الذى تحتك به الابل . العذيق تصغير العذق =

خطبة بشير بن سعد الأنصارى :

فقام بشير بن سعد — أبو النعمان بن بشير — فقال : « يامعشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين، وسابقة فى هذا الدين ما أردنا به إلا رضاء ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضا ، فان الله ولى المنة علينا بذلك ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » فقال أبو بكر : هذا عمر ،وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فانك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك ابسط يدك نبايعك ، فقام الناس إليه فبايعوه ،

هذا هو يوم السقيفة الذى كانت نتيجته نصرا مؤزرا للاسلام والدعوة والرسالة ، وللمسلمين عامة ، وكان مقبرة جديدة للعصبية الجاهلية الأولى ، وكان دليلا على فضل أبى بكر وحسن بلائه عن الاسلام .

=(بالفتح) وهو النخلة . المرجب : الذى جعل له رجبة وهى دعامة تبنى حولها من الحجارة وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تنقعر من الرياح العواصف . والتصغير هنا يراد به التكبير والتعظيم ، وهو مثل يراد به أنه رجل يستشفى برأيه وعقله . الجذعة : الشابة الفتية ، يريد الحروب والغارات والعصبية .

وقد قضى أبو بكر على ثورات المرتدين ، ثم بعث الجيوش تغزو وتحارب دولة الفرس ودولة الروم ، وتقضى على نفوذها من الأرض ، وتحارب استعمارهما للشعوب واستبدادهما بالأمم . تقدم المثنى بن حارثة إلى العراق، وتقدم خالد بن الوليد إلى الشام ، وانتصر خالد فى اليرموك نصرا مؤزرا على جيوش الروم ، وانتصر الجيش الاسلامى فى العراق ، وبعد قليـــل حضرته الوفاة .

أوصى بخمس ماله لبيت المال ، وقال : آخذ من مالى ما أخذ الله من فىء المسلمين ، أو ما أرضى ربى من الغنيمة . وكان أبو بكر قد وهب لعائشة أرضا بالغالية ، فلما حضر وعائشة تمرضه ، جلس وتشهد ثم قال : « يا بنية ، إن أحب الناس غنى إلى بعدى أنت ، وان اعز الناس فقرا على بعدى أنت ، وإنى كنت نحلتك أرضى التى تعلمين ، وأنا أحب أن ترديها على ، فيكون ذلك قسمة بين ولدى على كتاب الله . فانما هو مال الوارث . وهما أخواك وأختاك ». وقد فعلت عائشة ، وعرفت أن والدها شديد الحرص على أن يدع هذه الدنيا خفيف الظهر بريئا . وسأل عائشة : فى كم ثوب كـفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : فى ثلاثة أثواب . قال : اغسلوا ثوبى هذين ، وابتاعوا لى ثوبا آخر . قالت : يا أبت إنا موسرون . قال : أى بنية! الحى أولى بالجديد من الميت ! وبدأ أبو بكر يعالج سكرات الموت ، وعائشة ابنته إلى جانبه ، فلما رأته كذلك تمثلت ببيت حاتم :

لعمرك مايغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً ، وضاق بها الصدر

فنظر الصديق اليها كالغضبان ، ثم قال : ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولـكن : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كـنت منه تحيد » وكان آخر ما تكلم به : « رب توفنى مسلما ، وألحقنى بالصالحين » وقبض فى يوم

الاثنين ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ. وهو فى الثالثة والستين من عمره ، وقد دفن إلى جنب النبي صلى الله عليه وسلم . وارتجت المدينة لوفاة أبى بكر ، وتولى الناس الدهش ، وأقبل « على » مسرعا باكيا ، حتى وقف بباب قبره ، فقال من خطبته : « صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسماك الله فى كتابه صديقا ، فقال : « والذى جاء بالصدق وصدق به » ، يريد محمدا ويريدك . . . »

وأبنته عائشة فقالت من خطبة : « نضر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك . فقد كنت للدنيا مذلا ، بادبارك عنها ، وللآخرة معزا باقبالك عليها ... » وقال عمر : « ياخليفة رسول الله ، لقد كلفت القوم بعدك تعبا ، ووليتهم نصبا ، فهيهات من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك ؟ » .

هذا هو أبو بكر بطل الاسلام ، والذى تقول فيه ابنته عائشة أم المؤمنين ، وقد بلغها أن أقواما يتناولون ابا بكر فارسلت إلى أزفلة من الناس ، فلما حضروا ، أسدلت أستارها ، وعلت وسادها (١) ، ثم قالت : أبى ، وما أبيه (٢) ؟ . أبى والله لا تعطوه الايدى (٣) ، ذاك طود منيف ، وفرع

---

(١) يتناولون : نال من عدوه (من باب تعب) بلغ منه مقصوده ، والمراد أنهم يتكلمون فى شأنه بأقاويل . الازفلة : الجماعة ، يقال : جاءوا أزفلة وأجفلة أى جماعات . أسدلت : أرخت ، والسدل : الستر ، الوساد : ما يعلوه بالانسان قماش أو تراب أو غير ذلك .

(٢) وما أبيه : ما استفهامية مبتدأ ، أبيه : خبر أصلها أبى لحقتها هاء السكت وكل متحرك بحركة بناء أصلية إلا الفعل الماضى يجوز أن تلحقه هاء السكت عند الوقف عليه ، والاستفهام هنا للتعظيم .

(٣) العطو : التناول : ومعنى الجملة : أن الناس لا يبلغون مداه

مديـد(١) ، هيهات ، كذبت الظنون ، أنجـح إذ أكديتم وسبق إذ ونيتم وسبق الجواد إذا استولى على الامد(٢) .

فتى قريش ناشئا ، وكهفها كهـلا ، يفك عانيها ويريش مملقها ويرأب شعبها ، ويلم شعثها حتى حليته قلوبها ، ثم استشرى فى دين الله ، فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيى فيـه ما أمات المبطـلون (٣) .

---

(١) الطود : الجبل الشاهق ، ماخوذ من قولهم : بناء منطاد (بضم الميم) وهو الذاهب فى السماء صعدا ، وقد طوده تطويدا . منيف : اسم فاعل من أناف أى : عال مشرف .. الفرع . الغصن .

(٢) هيهات ، اسم فعل ماض بمعنى بعد ، أنجح . يقال : نجح فـلان ونجحت طلبته : أى صار ذا نجح ، أكدى : من الاكداء وهو الخيبة .

(٣) فتى . قوى سخى . نشأ أبو بكر من قريش أعز العرب فكان فتاها القوى وكهفها . الـكهف : الملجأ ، كان ملجأها وملاذها فى كبره العـانى : الاسير ، راش يريش : أغنى وتعهد مأخوذ من ريش الطائر وهذه المادة متداولة فى كثير من اللغات بهذا المعنى ، المملق . الفقير سمى كذلك من الملقة وهى الصخرة الملساء ، أو لأنه يتملق أهل المـال . يرأب . يجبر ويصلح . الشعب : الصدع أو الجبر (وهو من الأضداد) والمراد هنا الاول . يلم : يجمع . الشعث : المتفرق . حليته : وجدته حلوا مستحسنا . استشرى : لج وتمادى ، شكيمته : جده وصلابته والشكيمة فى الاصـل حديدة اللجام المعترضة فى فم الفرس وهى التى تمنع الفرس من جماحه ، شبهت =

وكان غزير الدمعة ، وقيذ الجوانح . شجى النشيج ، فانقضت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ، ويستهزئون به (١) (الله يستهزىء بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) فأكبرت ذلك رجالات من قريش فحنت قسيها وفوقت سهامها ، وامتثلوه غرضا ، فما فلوا له صفاة ،
ولا قصفوا له قناة ، ومرّ على سيسائه حتى إذا ضرب الدين بجرانه ، ورست أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا ، اختار

= بها أنفة الرجل وتصلبه فى الامور ، وما يمنعه من الهوادة فقالوا : فلان شديد الشكيمة لانه إذا اشتدت تلك الحديدة كانت عن الجماح أمنع ، واشتقوا منها فى صفة الأسد : شكيم . وشكمت فلانا ، إذا ألجمته بعطاء .

(١) وقيذ الجوانح وقذ : كسر ، الجوانح : الضلوع ، يقال وقيذ الجوانح أى محزون القلب لأن الجوانح تحتوى عليه فأضاف الوقود إليها . والمراد أن الله خوف قلبه فكان رقيقا حساسا ، شجى النشيج أن يغص الحلق بالبكاء من غير انتحاب ، ومنه نشيج الطعنة عند خروج الدم ، ونشيج القدر عند الغليان ، والشجا . ما تعلق بالنفس من غصة وهم ، والمعنى أنه كان شجيا فى نشيجه ، تقصد بذلك أنه كان مشغولا ببكائه سرا خوفا من الله ، أو أنه يحزن من يسمعه باكيا . انقضت إليه ويروى (فانصفقت عليه) والمعنى اجتمعت عليه . صرفهم اليه صارف اللهو والسخرية .
الطغيان : الزيادة . العمه : التردد فى الضلال . رجالات : جمع رجل ، ولا يستعمل إلا لعظماء الرجال . حنت : عطفت وأعدت . القسى : جمع قوس . فوق السهم : جعل له فوقا وهى موضع الوتر من السهم . امتثلوه ، جعلوه هدفا يرى ، فلوا : كسروا . الصفاة الصخرة الملساء .

الله لنبيه ما عنده (١) فلما قبض الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) ضرب الشيطان رواقة ومدطنبه، ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورجله، واضطرب حبل الإسلام، ومرج عهده وماج أهله وبغى الغوائل(٢)، وظنت رجال أن قد أكثبت أطماعهم نهزها ولات حين الذى يرجون، وأنى والصديق بين أظهرهم؟! (٣) فقام حاسرا مشمرا، فجمع حاشيتيه، ورفع قطريه

(١) سيسائه: شدته وحدته يقال: حمله على سيساء الحق أى على حده، وأصل السيساء عظم الظهر، ومعرب تضرب به مثلا لشدة الأمر. جيران البعير: مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره، والجملة استعارة تمثيلية شبه حال الدين يستقر ويثبت ويستقيم بحال البعير يستريح فيمد عنقه على الأرض. أفواجا: جماعات. أرسالا: جمع رسل بفتحتين: وهو القطيع من كل شىء: أشتاتا: متفرقين اختار الله لنبيه ما عنده: كناية عن وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعـــلى.

(٢) الروق: الفسطاط. الطنب، حبل طويل يشد به سرادق البيت وفى هذه العبارة استعارة تمثيلية، شبه حال الشيطان بنزوله بينهم واستقراره فيهم بحال البيت يمتد فسطاطه وتشد حبائله وتتمكن. أجلب: صاح، والخيل: الخيالة ومنه (ياخيل الله أركبى) الرجل: جمع راجل كالصحب والركب أى: صاح بالركاب والمشاة. المرج بفتحتين. الفساد والقلق والاضطراب، ماج: اضطرب. الغوائل: ذوو الشر والحقد البـاطن.

(١) أكثبت: قاربت. نهزها: جمع نهزه وهى الفرصة. لات حين الذى يرجون: لات بمعنى ليس واسمها ظرف زمان محذوف تقديره: ليس الحين حينا يرجونه. أنى. بمعنى كيف، والاستفهام للاستبعاد أى بعد رجاؤهم فى أطماعهم لأن الصديق بينهم يتولى دين الله بحكمته.

فرد رسن الاسلام على غربه ، ولم شعثه بطبه ، وانتاش الدين فنعشه ، فلما أراح الحق على أهله وقرر الرءوس على كواهلها ، وحقن الدماء في أهبها ، أتته منيته ، فسد ثلمته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في السيرة والمعدلة ، ذاك ابن الخطاب (١) ، لله در أم حملت به ، ودرت عليه ، لقد أوحدت به ، ففنخ الكفرة وديخها وشرد الشرك شذر مذر ، وبعج الأرض وبخعها فقاءت أكلها ، ولفظت . خبأها ، ترأمه ويصدف عنها ، وتصدى له ويأباها ، ثم وزع فيها فيئها ، وودعها كما صحبها ، فأروني ماذا ترتأون ؟ وأي يومي أبي تنتقمون ؟ ءأيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم (٢) .

ثم أقبلت على الناس بوجهها ، فقالت ، أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئا ؟ قالوا : اللهم ، لا .

---

(١) قطريه ، القطر : الناحية . رسن : حبل . غربه : الغرب حد الشيء . انتاش : انتشل . نعشه الله كأنعشه : رفعه . أراح الحق : رد الحق . كواهلها : الكاهل : مقدم أعلى ظهر البعير مما يلي العنق . حقن الدماء : منعها . أهبها : جمع إهاب وهو الجلد والمراد . الأجسام . الثلمة : الثغرة والشق : العدل . المعدلة .

(٢) الدر : اللبن والنفس والعمل ، أوحدت به : ولدت واحدا أي جاءت به منفردا لا نظير له . فنخ الكفرة : أذلهم وقهرهم . داخ البلاد وديخها ودوخها : قهرها واستولى على أهلها . شرد الشرك شذر مذر : فرق أهله في كل جهة . بعج الأرض : شقها كناية عن الفتح ، بخعها : قهر أهلها واستخرج ما فيها من الكنوز وأموال الملوك . تشير إلى جيوشه التي سيرها =

الدين والإصلاح

بين مواكب الشباب الساعية لخير الحياة ومجدها ، نرى البعض قد انحرف عن الجماعة وترك التفكير فى أهداف الدين ومراميه وأصوله وجنح — باسم الإصلاح — الى الإيمان بمبادىء أخرى تخالف ديننا وتقاليدنا الموروثة ،

لقد سبق الإسلام إلى تقرير كل ما هو حق وخير ، وإلى تطبيقه تطبيقا عاما على الناس كافة دون نظر إلى أجناسهم وعناصرهم وأديانهم لقد سبق فلاسفة الاجتماع المحدثين الى وضع أصوله . ووضع اصول السياسة والتشريع والأخلاق والتفكير ولم يجعل للمعرفة الانسانية حدا ، وكفل حقوق المرأة والعامل والزارع والخادم ، وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والانسانية فحسب دون النظر الى التفسيرات الاقتصادية المادية التى هى الآن أساس الحياة الحاضرة .. وسبق الى توطيد دعائم العدالة والمساواة بين الناس ، والى النظم الديمقراطية الشورية ، وتقرير مسئولية الحاكم والغاء الفوارق بين الطبقات والعناصر . والى محو الأمية . ومجانية التعليم والعلاج وتقرير مبدأ الضمان الاجتماعى للعاجزين عن الكسب : مسلمين وغير مسلمين وحارب الجشع الاقتصادى والربا والاحتكار والاستغلال لقد فكر بعض المسلمين على عهد رسول الله أن يؤجروا أراضيهم الواسعة التى لا يزرعونها للفقراء ، فنهاهم الرسول

= إلى الشام وإلى الروم وغيرها . الآكل : ما يؤكل . قالت : أخرجت خيراتها ترأمه : تعطف عليه . يصدف عنها : يعرض عنها ، تصدى له : تتعرض . الفىء : الغنيمة . يوم ظعنه : يوم وفاته . نظر اليكم : اهتم بصالحكم وفكر فى شأنكم إذ عهد إلى عمر . أنشدكم الله : أقسم عليكم بالله .

قائلا: « من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه» وحجر عمر على الأشراف أن يهاجروا إلى البلاد المفتوحة لامتلاك أراضيها حتى لا يضيقوا على الناس قائلا : « ألا فان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا ».

إن المعجبين بالحضارة القائمة إنما يعنون بها عادة السكك الحديدية والكهرباء والبرق والمذياع والطائرة ، كما يقول برنارد شو ، أما المعجبون بالحضارة الإسلامية فيعنون مبادئها الروحية وغاياتها الإنسانية ، وما شرعته للعالم من نواميس ونظم ، ومن ثقافة وعدل وحرية وخير ، وبسط لسلطان العقل ، ومحاربة للأوهام والجمود والجهل .

البلاغة والتجديد

— ١ —

البلاغة العربية مدينة فى نشأتها الأولى لجهود علماء اللغة والأدب ، ولمثابرة الرواة والنقاد الباحثين فى أصول البيان العربى ؛ مع الأثر الفذ الذى أحدثه الكتاب والشعراء والأدباء فى القرن الثانى والثالث الهجرى .

ولقد تلاحقت الثقافات ، واتصلت المعارف ، وتبودلت الأفكار ، فى عواصم العلم والثقافة فى العالم الإسلامى القديم ، على أيدى العرب الذين نبغوا فى اللغات الأجنبية ، والموالى الذين حذقوا اللغة العربية وأجادوها ، والمترجمين الذين كانوا همزة الوصل بين الثقافات القديمة والثقافة العربية الإسلامية الأصيلة .

كان خلف لايشق له غبار فى صناعة النقد « لنفاذه فيها وحذقه بها وإجادته لها » (١) ، وكان أبو عبيدة يعجب من فطنة بشار وجودة قريحته وصحة نقده للشعر (٢) ، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه (٣) . وكان الجاحظ (٤) يرى أن بشارا زعيم المولدين . ثم جاء ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المدبر وابن المعتز ، فكان لجهودهم أثر كبير فى نشأة البلاغة ونمو البحث فى أصول البيان .

ولا ننسى جهود طائفة أخرى من العلماء فى إثارة البحوث البلاغية والتعليق عليها ، وتلك الطائفة هى جماعة العلماء الذين شغلوا بالبحث فى إعجاز القرآن

(١) ١/١٩٧ العمدة. (٢) ٢٠٧ طبقات ابن سلام .
(٣) ٣٢٣ الأغانى (٤) ١/٩١ العمدة

الكريم وتفهم أسرار هذا الإعجاز والتأليف فيه ، فكشفوا الكثير من غوامض البلاغة وأصولها ، ومن هؤلاء أبو عبيدة والجاحظ وسواهما من أئمة المعتزلة ونحوها .

وعلى أيدى قدامة وأبى هلال والآمدى والقاضى والجرجانى وغيرهم من أفذاذ النقاد فى القرن الرابع الهجرى ، نرى البحث البلاغى ينمو ويقوى ويزدهر . . ثم تلاهم الباقلانى وابن سنان وابن رشيق من علماء النقد والبيان .

ولقد لمعت عبقرية عبد القاهر الجرجانى المتوفى عام ٤٧١ ﻫ فى هذا العهد وكان مظهر هذه العبقرية اللماحة كتابان جليلان ألفهما قبل وفاته بقليل هما : (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) اللذان يعدان حتى اليوم أصلا ضخما من أصول البيان وبحوث البلاغة والنقد والموازنة .

وبعد عبد القاهر انطفأ السراج ، وذبل العود ، وأصيبت الأذواق بالعى والعجز ، كما أصيبت البلاغة بالتأخر والاضمحلال . . وبعد نحو قرن ونصف قرن ظهر لجأة السكاكى بعقليته المنطقية وذوقه الأعجمى ، فأحال البلاغة إلى جدل عقيم فى الألفاظ والأساليب ، وإلى قواعد جافة لاصلة لها بالذوق ولا بالحياة ، وكثر تلاميذ السكاكى ، وانتشر مذهبه فى البلاغة الذى يمثله القسم الثالث من كتابه (المفتاح) ، والذى عنى فيه مؤلفه بالقشور لا باللباب ، وبالتوافه لا بالحقائق ، ولا تزال دراستنا للبلاغة حتى اليوم قائمة على أصول مذهب السكاكى وتلاميذه وحدهم دون سواهم .

— ٢ —

ولقد نهض جماعة من أدبائنا يدعون إلى التجديد فى البلاغة . فمن قائل ، إن الكتب القديمة يجب أن تحل محلها كتب أخرى مؤلفة على النهج الحديث ، ومن دعاة إلى تلقيح البلاغة العربية بأصول الدراسات البلاغية فى شتى اللغات الحديثة الأوربية ، ومن ناهجين مناهج الغرب فى بحث أسرار البلاغة وأصولها ، ومن منادين إلى مذاهب البلاغيين القدماء : من أمثال عبد القاهر وقدامة وأبى هلال .

وهكذا تعددت الآراء ، وتخاصمت الأفكار ، فى التجديد فى البلاغة ، وبيان كيف يكون هذا التجديد ، على أن أذواق علمائنا المعاصرين وأدبائنا المشهورين لا تكاد تساعد على الوصول إلى هدف أو غاية ينشدها المشفقون على البلاغة العربية اليوم . والذين يحاولون التجديد فيها يكتفون بنقل أفكار الغربيين دون فهم أو يقظة فكرية أو إلمام ما بتراثنا القديم الخالد فى البلاغة والبيان والنقد .

ومن أمتع صور البحث البلاغى والنقد البيانى هذه الدراسة الجليلة التى نشرت فى مجلة الأزهر ـ عدد ربيع الأول ١٣٧٢ هـ ـ بعنوان «علوم البلاغة فى الميزان» والتى اتجه فيها الكاتب إلى إثارة الملكات ، وتنشيط الأفكار ، وتحريض الأذهان على النظر والبحث والنقد والاستنتاج والكشف ، وحفز الهمم للبحث والابتكار . . وهى محاولة جدية قوية فى سبيل التجديد البلاغى المنشود . وأول ذلك الأسرار البلاغية الدقيقة للحذف ، ومحاولة الكشف عنها ، فلقد عرض عبد القاهر الجرجانى للحذف ومكانه من البلاغة دون أن يبين سبب هذا الحسن والإحسان ، وسر هذا الجمال البيانى الأخاذ ،

وجاء السكاكى والخطيب وتلاميذهم لجعلوا الحذف فى موضعه كالذكر فى موضعه ، لكل مكانه من البلاغة ، ومنزلته من سحر البيان ; وأبوا أن يكون للحذف مزية على الذكر بل هما يحصلان البلاغة ويوجدانها ،ثم عللوا الحذف بعلل متكلفة لاصلة بينها وبين أحكام الذوق الأدبى السليم .

ويحاول الباحث أن يعلل سر جمال الحذف وبلاغته بأسباب نفسية وأمور بيانية ، منها الهجوم بالسامع على المطلوب دفعة ، والجدة التى نراها فى أسلوب الحذف ، ومنها أن المحذوف تدل عليه القرائن فاذا ذكر كان ثقيلا فى موضعه لأنه تعريف لما عرف وبيان لما بين ، فيربط بذلك بين البلاغة وأحكام الذوق وأسرار البيان وملكات النفس الإنسانية .

ومن البحوث التى أثارها الأستاذ أسلوب التجريد ، وتحليل ألوان جماله وسر هذا الجمال ، بعيدا عن تكلف القدماء البغيض وتأويلهم المصنوع .

وكذلك عرض لأسلوب : رأيت اليوم حاتما ولقيت مادرا وسمعت سحبان وما أشبه ذلك ، مما أوله البلاغيون لجعلوا حاتما هنا كأنه موضوع للجواد ، فانتزعوه من معناه وهو العلمية على الرجل المعروف من طىء ، وبهذا التأويل يكون حاتم متناولا للفرد المتعارف المعهود والفرد غير المتعارف ، وهو من يتصف بالجود ، فيصير استعماله فى غير المتعارف استعمالا فى غير ما وضع له فيكون عندهم استعارة .

وأستاذنا محمد عرفه يبحث ذلك كله ويناقشه وينقده ، ويحاول الوصول إلى الصواب فى أمره ، حيث يرى أن المراد هنا تشبيه هذا الكريم بحاتم فى جوده ، فحاتم باق على معناه دون تغير أو تبديل .

وهكذا نجد نهجا جميلا فى البحث والمناقشة، ومحاولة الكشف عن أسرار البلاغة وأصولها، وهو نهج طريف ما أجدر الأزهر أن يسير عليه فى الدراسة والبحث، لتكون دراسة البلاغة فيه مجدية منتجة، وليحاول أن يقف على قدميه أمام هؤلاء الذين يزرون بالبلاغة القديمة إزراء شديداً.

إن القديم ليس كله صوابا، وليس كله خطأ، بل فيه الصواب، وفيه الخطأ، وفيه سوى ذلك ألوان من القصور العلمى الذى يجب ملافاته، فما أجدرنا فى الأزهر بتجديد البحث والدراسة فى أصول بلاغتنا، وفى مذاهب البيان وأسراره.

حركة التجديد فى الأدب فى العصر الحديث

جدت على الأدب الحديث بعد الحرب العالمية الأولى عوامل عديدة أدت إلى: ذيوع آراء كثيرة حول التجديد فى الأدب والشعر، وإلى ثورة لفيف من الأدباء والنقاد المعاصرين على الأدب المحافظ الاتباعى (الكلاسيكى) ودعاته وأعلامه، ومن هذه العوامل:

١ — انتشار الثقافة الأدبية: لكثرة المدارس والمعاهد والجامعات، وبفضل الأزهر الشريف، وعن طريق المجامع والنوادى الأدبية، ومن بينها المجمع اللغوى فى مصر، والمجمع العلمى فى دمشق، والمجمع العربى فى بغداد، وبفضل المطابع التى تخرج العديد من الكتب المؤلفة القديمة والحديثة والمترجمة كل يوم.

٢ — ذيوع الأدب الغربى الحديث فى محيطنا الأدبى، وتأثر طبقة من أدبائنا ونقادنا به.

٣ — تجدد مظاهر الحضارة ومشاهد الحياة يوما بعد يوم، مما يترك أثره فى العقول والنفوس والمشاعر.

٤ — انتشار روح الثورة على قديمنا الأدبى بين طبقات الأدباء التى تخرجت من الجامعات المصرية والمعاهد الغربية - أما الأدباء الذى نهلوا من الثقافات الأدبية القديمة وحدها فقد تفاوتت ميولهم وأذواقهم نحو حركة التجديد فى الأدب والشعر، ففريق انصرف عنها وعدها جحودا لتراثنا الأدبى القديم ، وفريق شايعها وآمن بها مع الداعين إليها ، وفريق وقف موقفا وسطا، فهو يأخذ عن القديم البلاغة والطبع والذوق والموهبة ويأخذ عن الحديث المعانى والأخيلة والهدف والرسالة .

ولقد تعددت مناحى التجديد فى الأدب، فدعا فريق إلى الشعر المرسل (١) ودعا آخرون إلى الشعر الحر (٢) ، وتعددت مذاهب الشعراء فى شعرهم :

١ — ففريق أخذوا يحاكون القدماء فى فصاحتهم وفى منهجهم فى نظم القصيدة ، مع التأثر بالحياة والعوامل الجديدة التى أثرت فى الأدب: شعره ونثره، ومن هؤلاء: البارودى وشوقى وحافظ والأسمر ومحرم والجارم وسواهم ، ويلقب مذهب هؤلاء فى الشعر بالمذهب الاتباعى (الكلاسيكى) .

٢ — وفريق دعوا إلى التجديد فى الشعر والخروج فيه على منهج القدماء؛ وجعله متمشيا مع ناموس التجدد فى الحياة والحضارة والثقافة ، وجعله تعبيرا خالصا عن نفس الشاعر ومشاعره وآماله وآلامه ، وسمى مذهب هؤلاء فى الشعر بالمذهب الابتداعى (الرمانتيكى) ، ومن هؤلاء : مطران وشكرى وأحمد زكى أبو شادى وإبراهيم ناجى وسواهم من شعراء مدرسة أبولو .

---

(١) هو مالا تقيده قافية .

(٢) هو مالا تقيده قافية ولاوزن .

٣ — وفريق آخرون رأوا أن الشاعر يجب أن يكون واقعيا فى شعره ، يتحدث عن الحياة والمجتمع وواقع الشعوب العربية مصورا لآلامها ، داعيا للثورة على الجمود والفقر والمذلة وغيرها من أمراض المجتمع العربى ، ومذهب هؤلاء هو المذهب الواقعى ، ومنهم طائفة من الشعراء الشباب الذين نقرأ لهم ، ونسمع عنهم .

وفى الأدب شعره ونثره جدت القصة والمسرحية ، وذاعت فى النثر المقالة الصحفية . ودعا لفيف من الأدباء إلى التجديد فى اللغة والأساليب تجديدا لايخرجها عن العربية ولايقف بها عن القدرة على التعبير عن مشاعرنا وعن مظاهر الحضارة التى تستجد فى الحياة كل يوم .

ونحن نقف من حركة التجديد فى الأدب موقفا وسطا ، فنقبل من الآراء كل مالا يخرج عن أصول اللغة والأدب العربى ؛ وننبذ كل ما يعد هجوما على اللغة العربية وآداب القرآن وأسلوبه .

ولاشك أن على النقاد واجب توجيه الأدباء ، وتوجيه حركة التجديد والدعوات الجديدة التى ينادى بها فريق من الأدباء .

ونحن نتفاءل بمستقبل زاهر للأدب العربى ؛ شعره ونثره على السواء ، ونتوقع له أن يصبح فى المستقبل القريب أدبا إنسانيا عالميا ، له خصائصه الفكرية والتوجيهية ، وله ميزاته الرفيعة فى كل منحى من مناحيه .

وسيصبح الأدب العربى فى القريب مصدر الدعوة إلى الحضارة الإسلامية ومجد العروبة وعزتها ومفاخر المسلمين .

ويقول بعض أدبائنا المعاصرين :

« يرى الناظر فى الأدب العربى الحديث أنه قد نبع من نبعين مختلفين

كل الاختلاف وتأثر بهما واستمد منهما ، وغاية الأمر أن الآثار الأدبية قد يظهر فى بعضها هذا النبع أكثر من صاحبه ، وقد يكون العكس ، هذان النبعان أو الحركتان أو العنصران هما : الثقافة الأجنبية والثقافة العربية القديمة التى تعتمد على الأدب القديم ، والتى نشأت من الأزهر ودار العلوم ونحوهما ، فهؤلاء نشروا تعليم اللغة العربية وآدابها فى المدارس ، وقاموا بنشر الثقافة العربية بجانب الإنجليزية والفرنسية وغيرهما .

وكان من أثر هذا : التأليف فى الموضوعات القديمة ، ونشر الكتب القديمة ، كما يفعل الأدباء العرب والمستشرقون .

وهذا هو ما يفسر الصراع بين المدرسة القديمة والمدرسة الحديثة ، أو بين شيوخ الأدب والعلم وشبان الأدب والعلم .

وهاتان الحركتان — الحركة الأوربية والحركة العربية — وامتزاجهما على أشكال من المزج ، هو الذى يلقى الضوء على نتاجنا الأدبى على اختلاف أنواعه .

امتزج هذان العنصران فكان لنا أدب سياسى يتفق وموقفنا ، ويتفق وحياتنا ، وما كان يكون ذلك لو لم يمتزج العنصران ، وربما كان محمد عبده وسعد زغلول خير من يمثل هذه الفكرة ، وفيهما اجتمع العنصران وتآلفا .

خذ لذلك مثلا : أدبنا السياسى كشعر حافظ ، وخطب سعد ، ومقالات الصحف فى الحركة الوطنية ، فهى عربية قومية فى لغتها ونزعتها ، وهى غربية تحذو حذو مختلف الآداب فى كيفية معالجة الموضوعات فى الصحف وعلى ألسنة الخطباء الخ . .

ولننظر مثلا إلى الشعر الحديث ، لقد كان قبيل البارودى منحطا منحلا ،

وكان أغلبه نظما لا شعرا ، يستعمله الشعراء فى التهانى والتعازى وما شاكل ذلك فى أسلوب منحط ، أو فى الخلاعة والمجون فى ألفاظ بذيئة .

فجاء البارودى وجدده ، ولكن تجديده لم يكن من نوع التجديد الذى يسود الآن من تطعيم الشعر العربى بالشعر الأجنبى ، إنما كان تجديده من ناحية الرجوع بالشعر العربى لا إلى العصر المنحط ، بل إلى العصر البعيد الراقى ، فترسم آثار أبى نواس وأبى فراس والمتنبى والشريف الرضى ، من حيث الأغراض والمعانى وجزالة اللفظ ، فلما جاء حافظ وشوقى وأضرابهما كان تجديدهما أوضح ، ولكنهما مع هذا كان حظهما من القديم أكثر من حظهما من الجديد . فلما رحلا إلى جوار ربهما وقف الشعر أو كاد ولم يتقدم كثيرا . ولعل السبب فى ذلك هو ما أسلفنا من نظرية امتزاج الثقافتين .

فالشعر القديم كان مناسبا للذوق القديم ، فلما تطور ذوق الأمة رأى أمامه شيئين مختلفين تمام الاختلاف ، فأما أحد الشعرين فشعر على النمط القديم فى أوزانه وقوافيه وأغراضه ومعانيه ، وهذا لم يعد غذاء كافيا ، لأن ذوق الأمة اجتاز هذا الطور ؛ وشعر أمعن فى تقليد الشعر الافرنجى فى معانيه وأسلوبه وصوره وأخيلته فجاء نابيا عن الذوق الشرقى ، ولم تعجبه صياغته ولا ألف تعبيراته : كالشاطىء المجهول ، ومقابر الفجر ، ونحو ذلك .

وهذا السبب الذى دعا إلى تأخر الشعر هو بعينه الذى دعا إلى نجاح النثر ، وخاصة فى بعض نواحيه كالمقالة ، فالكتاب استطاعوا أن يتحرروا من كثير من قيود الماضى كالإغراق فى المحسنات اللفظية والسجع ونحو ذلك ، واقتبسوا من الغربيين محاسنهم كالتحليل الدقيق والبساطة فى التعبير ، وتمشوا فى تعبيرهم وموضوعاتهم مع رقى عقلية المثقفين ، فنجحوا حيث لم ينجح الشاعر .

لجرى النثر طلقا ، وتحرر من كثير من قيوده ، واستفاد من الأدب الغربى أكثر مما استفاد الشعر ، سواء فى ذلك موضوعاته وأساليبه . ولم يبق ممن التزم المنهج القديم إلا عدد قليل من الكتاب .

على أن النثر الجديد لم يكن كله وليد الآداب الأجنبية ، بل كان وليد الحركتين معا ، فأساليب قادة الكتاب نتاج مطالعات فى كتب الأقدمين ومطالعات فى كتب الغربيين ، ولكنهم نجحوا فى التخير ومقدار التحرر ، قرأوا ابن المقفع والأغانى وأمثالهما ، وانطبعت فى أذهانهم صور للأساليب الرائعة ، ثم قرءوا الأدب الغربى فتشبعوا بموضوعاته وأساليبه أيضا ، واشتقوا عنهما نمطا جديدا لا شرقيا خالصا ولا غربيا خالصا ، بل هو شرقى غربى معا ، وهذا هو السر فى نجاحه .

رأوا فى النثر القديم جزالة فى الأسلوب فاقتبسوا منها ، ولكنهم رأوا فيه إيجازا قد يدعو فى كثير من الأحيان إلى الغموض فاعرضوا عنه ومالوا إلى الوضوح ، وكان أكثر قادة الكتاب فى مصر صحفيين فالوا إلى الإطناب ، ورأوا كثيرا من موضوعات الأدب القديم لا تناسب حياتنا الواقعية فقلدوا الفرنجة فيما يكتبون من موضوعات ، وحملتهم الأحداث السياسية على أن يكثروا القول فى السياسة والحرية وحقوق الأفراد وحقوق الأمم ، فكان من ذلك كله مرانة حسنة لأقلامهم لم تتوافر للشعراء ، ومرانة حسنة لألسنتهم ، فنمت ناحية الخطابة عندهم ، وشعر المصلحون بنواحى ضعف كثيرة فى الحياة الاجتماعية ، فاخذوا يعالجونها بالمقالات ينشرونها فى الصحف والمجلات وفى كتب خاصة ، هذا يعالج شؤون المرأة ، وهذا يعالج البؤس والشقاء ، وهذا يعالج القيود التى كبلت بها الحرية ، فأثر هذا كله أثرا صالحا فى أن يكون للأدب الحديث موضوع بعد أن كان جملة ألفاظ جوفاء .

وكان من أوضح آثار الحركة الأجنبية فى الأدب العربى الحديث : القصص والتمثيل ، فالأدب الأوربى الحديث عماده القصص ، وكان هذا القصص ضعيفا فى اللغة العربية فى مصر والشرق ، ترفع عنه الأدب الأرستقراطى ونعم به الأدب الشعبى ، فقد كان الشعب ينعم بقصة أبى زيد الهلالى وسيف بن ذى يزن والظاهر بيبرس وألف ليلة ، كما تنعم البيوت بأحاديث العجائز ونحو ذلك . وأما الأدب الأرستقراطى فكان يترفع عن ذلك ويتوقره ويعده من سقط المتاع .

فكان من نتيجة الاطلاع على الأدب الغربى وتعرف منزلة القصة أن قلدهم كتابنا ، فبدأوا — أولا — يترجمون ثم أخذوا يؤلفون ، ويجعلون الحياة المصرية موضوعا لرواياتهم ، وأنشئت بعض المجلات التى تقتصر على مثل هذا النوع من الأدب ، ووجد الكتاب الذين يتخصصون لذلك .

وكذلك كان الشأن فى التمثيل والروايات التمثيلية ، فقد سارت فى هذا الطريق نفسه ، فوجدت الروايات التمثيلية المترجمة والمقتبسة والمؤلفة ، ووجد المسرح لعرض هذا النوع من القصص ، ولا يزال هذا الامتزاج يعمل عمله ويسير فى قوة حتى يبلغ الأدب العربى مبلغه اللائق به » .

البـــلاغة الأدبيـة

إذا كنت ممن يهتز للبلاغة الأدبية ، ويرتاح للأسلوب الجيد ، ويسحره البيان الرائع فاعلم أن لديك موهبة أدبية كامنة تحب أن تظهر ، وفطرة بيانية تختفى فى جوانحك وأعماق نفسك تريد أن تتحرك ، وأنت حينئذ

عندك استعداد لكى تكون أديبا ، وفيك رغبة قوية فى عمل أدبى مثمر ، ولديك ذوق تحب أن يكتمل ويقوى على تحمل تبعات الحكم الأدبى .

فاذا أردت أن تسير فى الطريق ، وأن لا تقف دون غايتك ومرماك ، فعليك إذن أن تنهض بعبء الحياة الأدبية التى ترمقها وتنشد أن تحياها .

غذ نفسك بشتى الثقافات الأدبية ، القديمة والحديثة على السواء : قراءة وفهماً وحفظاً وتذوقا . . ثم ثقافتك العقلية بالاطلاع على مختلف العلوم والفنون ، وتابع الفكر الإنسانى فى خطواته المتوثبة السريعة الرائدة ، واحرص على أن تكون ملماً بكل ما يجد فى الحياة من جديد ، وعلى قراءة سير أعلام الأدب والشعر ومذاهبهم الأدبية وأثرهم فى نهضة الأدب وازدهاره.. فان واتاك الحظ ، فألممت بلغة من اللغات فاحرص على الوقوف على ثقافتها وآدابها ، والإحاطة بتراثها الفكرى والأدبى ، وإلا فاقرأ مايترجم من آدابها وعلومها وفلسفتها إلى لغة بلادك ، وحاول أن يكون له أثره فى عقلك ومشاعرك ، وأن تلقح به فكرك ومعارفك وثقافتك ، فاذا بلغت هذه الغاية فقد قاربت أن تصل إلى أمنيتك ، وتظفر ببغيتك وطلبتك ، وعندئذ قف أمام نفسك لتحاسبها ، واعترض الطريق أمام ذوقك تناقشه الحساب ، وسائل ملكاتك الأدبية : كيف ارتاحت لهذا الأثر الأدبى ؟ ولم تهتز إعجابا بروائع البلاغات ، وجيد الفصاحات . فان رأيت نفسك قادرا على الوقوف فى الميدان فاعتقد أن لك حظا فى الأدب ، وإنك على وشك أن يوحى إليك برسالتك الأدبية ، وإلا استفت أستاذك ، واسترشد برأى مرشد ليوجهك نحو الهدف ، وليبين ما خفى عليك من أسرار الصناعة الأدبية ، ومهما كان فهذب عواطفك وربّ مشاعرك على دقة الإحساس

ونبل التأثر ، وسمو الإدراك ، ونم خيالك بالاستغراق فى مشاهد الكون ومجالى الوجود ومظاهر الحياة والطبيعة ، ودع روحك تحس دبيب النملة ، وتسمع حديث الزهرة وتنظر إلى الأشياء صغيرها وكبيرها نظرة عميقة نافذة فيها صوفية وتبتل واستغراق ، ثم حرك فكرك واتركه يتأمل فى كل شىء ، ويبحث عن أسرار كل غامض ، يستجلى خفايا كل بعيد غائب عن حواسنا ومداركنا .

ثم حدد رسالتك الأدبية فى الحياة ، وابدأ فى أداء هذه الرسالة بقوة وعزم وثقة ، فقد أصبحت من غير شك أديباً . فان كنت تحب أدب المقالة أو القصة أو الرواية أو التمثيلية فسيرشدك ذوقك إلى مايعصمك من الخطأ ويجنبك العثار ، وإن كنت هيأت نفسك لتكون شاعرا فقد أتاح لك القدر الحظ الأوفى من ملكات الشعر ومواهبه ، ولن يستعصى عليك جيد الشعر ، والمران هو السبيل إلى الإجادة على أن من الناس من يرثون ملكات العربية من أصولهم العربية . وهؤلاء يستطيعون أن ينبغوا فى الأدب سريعا إذا حاولوا السير فى الطريق بقوة وعزم ، ومنهم من تدفعه إلى حب الأدب وتذوقه عوامل النشأة والتربية وطبيعة الثقافة الأدبية التى يوجه إليها ، ومنهم من ينبغ فى الأدب كبيرا لفقدان التوجيه المبكر له .. والذى يساعد على النجاح فى الميدان الأدبى كثيرا وبسرعة هو تعهد الأستاذ للأديب الناشىء وتوجيهه له .. وأحب أن لا يسعى الأديب أول أمره إلى الظهور فى الميدان الأدبى قبل أن تنضج ملكاته ، وأن لا يتخذ من الصحف والمجلات أستاذا له فى صناعة الأدب ، فان ذلك لا يكسبه إلا ثقافة عامة يسيرة . . والجماعات الأدبية التى يشترك فيها الأديب الناشىء هى خير طريق وأيسره لإنماء المواهب الأدبية وتقويتها .

الحطيئة الشاعر

— ١ —

هو جرول بن أوس بن مالك بن عبس بن بغيض من غطفان . كان يكنى . أبا مليكة باسم إحدى بناته وغلب عليه الحطيئة لقبا له لقصره وقربه من الأرض ويتهم الناس الحطيئة فى نسبه . وكان الحطيئة يقول : « إنما أنا حسب موضوع » ، ويقال إن والدته أمة، ولم تكن زوجة أبيه . وإن الحطيئة انتسب إلى غير أوس ، ثم أظهرت أمه أخيرا نسبه من أوس .

ونرى أن هذا هو سر تنقل الحطيئة بين القبائل وانتسابه إلى هذه حينا وإلى تلك حينا آخر . وسأل أمه مرة عن أبيه وكان اسمها الضراء ، فخلطت عليه ، فقال الحطيئة فى ذلك شعرا :

تقول لى الضراء لست لواحد   ولا اثنين فانظر كيف شرك أولئك
وأنت امرؤ تبغى أبا قد ضللته   هبلت ألما تستفق من ضلالك ؟

وربما كان هذا الشعر موضوعا على الحطيئة ، وذلك الاتهام فى نسبه أثرا لعداوته الناس وهجائه لهم .

— ٢ —

ونشأ الحطيئة فى نجد ، يقيم بجوار أوس والده ، وبعد حين توفى والده . فذهب إلى إخوته من أوس يطالبهم بميراثه ومدحهم بقوله :

إن اليمامة خير ساكنها   أهل القرية من بنى ذهل
قوم إذا انتسبوا ففرعهم   فرعى وأبعد أصلهم أصلى

فأعطوه نخلات سميت باسم زوجته فقيل لها نخلات أم مليكة ، واسم زوجته « أمامة » فغضب عليهم وهجاهم بقوله :

تمنيت بكرا أن يكونوا عمارتى ∴ وقومى وبكر شر تلك القبائل

وغاضبهم فعاد إلى بنى عبس ينتسب إلى أبيه أوس بن مالك . وظهر الاسلام وظلل العرب بلوائه فأسلم الحطيئة وإن كان الإسلام لم يهذب له خلقا ، ولم يرقق له طبعا ، ولم يغير وحشيته وبداوته . ثم مات الرسول صلى الله عليه وسلم . وارتدت بعض القبائل العربية فمنعت الزكاة ، وارتد الحطيئة معهم ، وقام لمحاربة جيوش المسلمين مع المرتدين وأخذ يحرض على المسلمين ويهجو أبا بكر خليفة رسول الله ، ومما قال فى ذلك :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لعباد الله مال أبى بكر ؟
أيورثها بكرا إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فقوموا ولا تعطوا اللئام مقادة وقوموا ولو كان القيام على الجمر

وانتهت فتنة المرتدين وخضع الناس لسلطان الإسلام من جديد وعاد الحطيئة مسلما كما كان . واتصل الحطيئة بكثير من سادات العرب وولاتها وأمرائها مادحا إذا أعطوه وهاجيا إذا حرموه العطاء كما اتصل بعمر ، ومن بعده من الخلفاء ومات سنة ٥٩ هـ فى آخر حياة معاوية .

وهكذا تنتهى حياة الشاعر التى كانت قصة من قصص الخصومة والعدوان والحرب الاجتماعية بين الشاعر وخصومه .

— ٣ —

اثر حياته فى شعره :

أولا : كان اختلاط نسب الحطيئة وضعته ذا أثر كبير فى نفسيته وفى حياته وفى شعره وشاعريته بما طبعه على المدح والهجاء .

ثانيا : كان الحطيئة راوية لزهير ، وشعره متصلا ببيت زهير فأثرت هذه التلمذة الشعرية فى شعره ومذهبه فى نظم القصيد .

ثالثا : حياة الحطيئة فى البادية جعلته بعيدا عن مظاهر الحياة الجديدة الإسلامية

وجعلت شعره قاصرا على وصف حياة البادية ومظاهرها ،

رابعاً : كان إسلام الحطيئة ومن شابهه من أهل البادية الذين يعيشون بعيدين عن مكة والمدينة مهبطى الوحى لاعن تدين وعقيدة وتضحية ولكن عن رغبة ورهبة فلم يؤثر القرآن الكريم ولا الحياة الإسلامية الجديدة تأثيرا كبيرا فى شعره وشاعريته ، ولذلك كان الحطيئة شاعرا بأوسع معانى هذه الكلمة وامتد أثر الجاهلية فى شعره حتى بعد الإسلام ، وخلا شعر الحطيئة من مظاهر الحياة الإسلامية الجديدة ومعانيها وأفكارها ومبادئها بما تستتبع من تحول ما فى الألفاظ والأساليب والخيالات .

خامسا : شدة نهم الحطيئة وجشعه وقلة وفائه للناس صاغت شعره على أنماط خاصة وألوان كان من مظهرها المدح والهجاء .

أسباب شاعريته

أولا : تلمذته على زهير الشاعر الجاهلى المشهور .

ثانيا : حدة مشاعره وعواطفه وبرمه بالحياة وضجره من الناس .

ثالثا : كثرة الخصومات التى اشترك فيها وكان بطلها .

رابعا : شعوره بضآلة نسبه وحسبه ولد فى نفسه عواطف الحب الشديد والبغض الشديد .

خامسا : معيشته فى البادية ، والبادية منبع الشعر وغذاؤه .

سادسا : ظهور الفجر الجديد بالجزيرة العربية وهو الإسلام ووقوف الحطيئة مع الاسلام حينا وعليه حينا آخر . قوى من ينا بيع الشعر فى نفسه .

أخلاقه وأثرها فى شعره

أولا : كان الحطيئة طليق اللسان . حاد الطبع . كثير الخصومات وقد أورثه ذلك شعوره بضآلة نسبه ومعرفته المغامز فى نسبه ، فنشأ على ضجر

شديد للحياة ، والناس وقد ظهر ذلك فى شعره واضحا . مما تلمسه فى مدائحه وأهاجيه التى اشتهر بها .

ثانيا: وشهر الحطيئة بكثرة أطماعه ، وشدة جشعه ، وسعيه للمال، وتحمله كل شىء فى سبيله . ومما يؤثر عنه قوله لابن عباس : والله يا بن عم رسول الله لولا الطمع والجشع لكنت أشهر الماضين ، أما الباقون فلا تشك فى أنى أشعرهم وأنفذهم سهما إذا رميت .. وقد ظهر أثر ذلك فى شعر الحطيئة فى كثرة مدائحه وتتبعه للناس يمدحهم طمعا فى فضل عطائهم وفى تكسبه الشديد بالشعر واتخاذه حرفة يعيش عليها ويأ كل منها .

ثالثا : وكان الحطيئة حريصا شديد البخل يطرد الضيفان ، ويؤذى الجيران ، وله فى ذلك الكثير من النوادر . ويروى أن رجلا أتاه ونادى عليه : يا صاحب الغنم ، فرفع الحطيئة عصاه فقال الرجل إنى ضعيف فقال الحطيئة : للضيفان أعددتها ؟ . فانصرف عنه . ويقول الأصمعى : ما نزل عليه ضيف قط إلا هجاه .

هذا الجانب من جوانب أخلاق الحطيئة يفسر لنا خلو شعر الحطيئة من الدعوة إلى الكرم وعدم إلقاء الحكم فى الإشادة بالجود والإحسان . وأما الأبيات : ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد فالصحيح نسبتها لحسان أو لابنه عبد الرحمن .

وهذا لم يمنع الحطيئة من أن يمدح الكرماء ويشوه بما يبذلونه من عطاء لأنه فى ذلك يبحث عن منفعته ويسير وراء هدفه .

رابعا : ومما يتصل بأخلاق الحطيئة من قريب : عدم حرصه على الظهور للناس فى هيئة جميلة ويروى أنه كان زرى الهيئة رثها ، قبيح المنظر ، وأنه كان يظهر فى المجالس فلا يعرفه أحد إلا بعد أن يعرفهم بنفسه .

آراؤه فى الشـــعراء :

وأنتم تعلمون أن الحطيئة تلميذ زهير فى الشعر لذلك نجده كثيرا ما يفضل زهيرا ، سأله ابن عباس : من أشعر الناس ؟ فقال الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

وهو زهير . قال ابن عباس : ثم من ؟ قال : الذى يقول :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

وهو النابغة . ومذهب النابغة فى الشعر وتحبيره قريب من زهير ، قال الحطيئة : ولكن الضراعة أفسدتهما كما أفسدت جرولا (يعنى نفسه) يريد الحطيئة بذلك تكسب الثلاثة بالشعر وإزراء التكسب بهم جميعا . وسأله عتيبة بن النهاس العجلى من أشعر الناس ؟ قال الذى يقول : ومن يجعل المعـــروف الخ .

وإن كان الحطيئة يورى بهـــذا البيت عن خلقه المأثور الذى جعله لا ينجو منه أحد إلا إذا اتقى شره . وسأله سعيد بن العاص فى موقف آخر : من أشعر الناس ، ففضل أبا دؤاد الايادى . ثم عبيد بن الأبرص ثم نفسه . قال لسعيد ، لحسبك بى عند رغبة أو رهبة إذا عويت فى إثر القوافى عواء الفصيل الصادى ؛ وتفضيله لأبى داود أولا لشهرة هذا الشاعر بمذهب التجويد والتحبير الذى ذهب إليه زهير . وفى وفاة الحطيئة ســـأله الناس أن يوصى فقال لهم : ويل للشعر من راوية السوء . أبلغــــوا غطفـان أن شاعرهم الشماس أشعر العرب ، وأبلغوا أهل امرىء القيس أنه أشعر العرب حيث يقول :

فيـالك من ليـــل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وأبلغوا الأنصار أن شاعرهم حسان أشعر العرب حيث يقول :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لايسألون عن السواد المقبــــل

آراء النقاد فى شعره :

أولا : سئل كثير من أشعر الناس ؟ ففضل الحطيئة .

ثانيا : قال أبو صفوان ما من أحد إلا لو شاء أن أجد عليه مطعنا فى شعره لوجدت إلا الحطيئة .

ثالثا : وقال أبو حماد الراوية : ليس أحد بعد زهير أشعر من الحطيئة .

رابعا : وقالوا فيــــه : ما طلب الإنسان عيبا فى شعر شاعر إلا وجـــده إلا الحطيئــة .

خامسا : قال أبو الفرج صاحب الأغانى فيه : هو شاعر من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرف فى جميع فنون الشعر من المديح والهجاء ، والفخر والنسيب ، مجيد فى ذلك أجمع . وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام .

سادسا : قال أبو عمر بن العلاء : لم تقل العرب بيتا قط أصدق من بيت الحطيئـة .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

سابعا : قال الجاحظ ، ما زال الناس يفضلون قول الأعشى فى النار :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

حتى قال الحطيئة :

متى تأته تعشوا إلى ضوء ناره تجـد خير نار عندها خير موقد

فاهمل بيت الاعشى وغلبه .

ومن أمثلة شعر الحطيئة التى تجمع اشراق الديباجة ، وتأنق الصوغ وقوة الرصف ودقة الوصف : قوله يصف أعرابيا سمحا كريما محسبا للفلوات ، ويصف ما كان من حيرته حين نزل به ضيف فلم يجد ما يطعمه به فيهم بذبح ابنه فيسنح له قطيع من الوحش فيصطاد منه ما يقر عينه ويسر ضيفه ، قال الشاعر :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ... ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما (١)
أخى جفوة فيه من الأنس وحشة ... يرى البؤس فيها من شراسته نعمى (٢)
وأفرد شعب عجوزا إزاءها ... ثلاثة أشباح تخـالهم بهما (٣)
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة ... ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما (٤)
رأى شبحاً وسط الظلام فراعه ... فلما رأى ضيفا تشمر واهتما (٥)

---

(١) الطاوى : الجائع من الطوى وهو الجوع . والواو لرب . ثلاث : أى ثلاث ليال . والعاصب البطن ، الذى شد عليها عصبا من الجوع ، والمرمل : الفقير أو الذى نفد زاده . ببيداء : صحراء مهلكة . الرسم العلامة والأثر ، ورسم الدار ما كان من آثارها لاصقا بالأرض .

(٢) الجفوة : الخشونة ، وأخى جفوة : صاحب جفاء وخشونة ، الشراسة : سوء الخلق أو حدته ، والنعمى كالنعمة .

(٣) الشعب : السرب أو الطريق فى الجبل . أشباح جمع شبح وهو ما يظهر للرائى من غير تمييز . البهم : اسم جنس واحده بهمة وهى ولد الضأن ذكرا أو أنثى

(٤) الملة : الرماد الحار .

(٥) راعه : أفزعه من الروع وهو الفزع .

وقال : هيا رباه ضيف ولاقرى بحقك لاتحرمه تا الليلة اللحما (١)
فقال ابنه لما رآه بحيرة : أيا أبت اذبحنى ويسر له طعما (٢)
ولاتعتذر بالعدم عل الذى طرا يظن لنا مالا فيوسعنا ذما (٣)
فروى قليلا ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما (٤)
فبينا هما عنت على البعد عانة قدانتظمت من خلف مسحلها نظما (٥)
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها على أنه منها إلى دمها أظما (٦)
فأمهلها حتى تروت عطاشها وأرسل فيها من كنانته سهما (٧)

---

(١) القرى : الكر والضيافة .

(٢) طعما : طعاما .

(٣) العدم : الفقر . عل : لغة فى لعل ، طرا تسهيل طرأ بمعنى قدم ونزل . فيوسعنا ذما : أى يذمنا ذما قبيحا حتى كأننا مكان يحل فيه الذم فيسعه

(٤) فروى : تروى وتدبر . برهة : تستعمل للزمن البعيد والقليل، فهى من الأضداد .

(٥) عنت ، من باب ضرب ونصر :ظهرت ، العانة : القطيع أوالجماعة من حمر الوحش . المسحل : الحمار الوحشى الهادى والقائد

(٦) ساب وانساب : جرى ومشى مسرعا .

(٧) الكنانة : وعاء السهام . السهم : القدح أو العود من النبع إذا كان فيه نصل (حديدة) ، وأما إذا لم يكن فى العود نصل فهو القدح فحسب ، والنبع :شجر تتخذ منه السهام والقسى

نحرت نحوص ذات جحش سمينة ... قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما (١)
فيابشره إذ جرها نحو قومه ... ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى (٢)
وبانوا كراما قد قضوا حق ضيفهم ... وماغرموا غرما وقد غنموا غنما (٣)
وبات أبوهم من بشاشته أبا ... لضيفهم والأم من بشرها أما (٤)

مؤرخ الأدب الأندلسى

المقرى شهاب الدين احمد بن محمد أبو العباس المقرى التلمسانى (٩٨٨ — ١٠٤١ هـ) من أفذاذ الأدباء والمفكرين العرب فى القرن الحادى عشر الهجرى، وقد نشأ فى مدينة تلمسان بالمغرب الاوسط ، ورحل إلى جهات كثيرة فى المغرب ، والى كثير من البلاد الإسلامية كمصر والحجاز والشام ومات فى القاهرة حيث دفن فى مقبرة المجاورين عام ١٠٤١ هـ — ١٦٢٢ م بعد أن ترك وراءه آثارا أدبية خالدة ، ومولفات ممتازة مشهورة وذكرا مدويا فى كل مكان .

وترجع أهمية تآليف المقرى إلى أنها دوائر معارف عامة عن الأدب

---

(١) النحوص : الأتان التى لاولد لها أو التى منعها السمن من الحمل أو العقيمة الشابة . الجحش : ولد الحمار . اكتنزت : امتلأت .

(٢) البشر : السرور . الكلم : الجرح

(٣) المغنم والغنيمة والغنم بالضم : الفىء والفوز بالشىء بلا مشقة . أو هو الغنم . والفىء الغنيمة ، والغرم : مايلزم أداؤه .

(٤) البش والبشاشة : طلاقة الوجه ، واللطف فى المسألة ، والإقبال على أخيك والضحك إليه وفرح الصديق بالصديق .

العربي فى الأندلس والمغرب ، وموسوعة كبرى عن الحياة السياسة والفكرية والادبية فى هذه البلاد ، وقد طارت شهرة كتابه « نفح الطيب » فى العالم كله ، وعد مرجعا أصيلا فى الآداب العربية فى الأندلس خلال الحكم العربي

وقد استقى المقرى موادكتابه من مئات المراجع التى ضاعت بمرور الأيام ، وبقى ذكرها وآثار منها فى نفح الطيب .

وقد ظل تاريخ المقرى مجهولا ، حتى تصدى للكتابة عنه أديب تونسى مجود موهوب ، هو الباحث «الحبيب الجنحانى» الذى تحدث فى مفتتح كتابه الذى نتحدث عنه — عن الحياة الفكرية فى العالم الإسلامى فى عصر المقرى وتكلم عن حياة المقرى وآثاره ومؤلفاته ومكانته العلمية والأدبية فى عصره فى شيء من الإفاضة والتحليل والبحث والنقد .

وفى آخر هذا الكتاب القيم يتكلم المؤلف عن المقرى المؤرخ والكاتب والشاعر ويأتى بنماذج مختارة من أدبه ، ثم يحصى شتى المصادر التى رجع إليها فى كتابة بحثه .

ولاشك أن المجهود الذى قام به المؤلف يعد عملا علميا وأدبيا أصيلا ، وهو من أجله حرى بتهنئتنا ، وبتهنئة القارىء العربي فى كل مكان .

شاعرية التيجانى بشير

هذه الوحدة المقدسة بين شمال الوادى وجنوبه ، ليست شيئا من صنع التاريخ ، ولكنها حقيقة خالدة من صنع الله ، وشعور أبدى بروابط الفكر والروح والآمال والآلام ، وحنين متصل إلى الحرية والقوة والمجد ، كما يعبر عن ذلك شاعر السودان ، لا بل شاعر الوادى ، المرحوم التيجانى بشير ، أبلغ تعبير ، فيقول :

عادنى اليوم من حديثك يامصـ ـر رئى ، وطوفت بى ذكرى
وهفا باسمك الفؤاد ، ولجت بسمات على الخواطر سكرى
من أتى صخرة الوجود ففرا ها ، وأجرى منها الذى كان أجرى
هو من صاغنا على حرم النيـ ـل وشطآنه دعاء وشكرا
إنما مصر والشقيق الأخ السو دان كانا لخافق النيل صدرا
حفظا مجده القديم ، وشادا منه صيتا ، ورفعا منه ذكرا
كلما أنكروا ثقافة مصـر كنت من صنعها يراعا وفكرا

ويعبر فى قصيدة أخرى عن هذه الوحدة الوثيقة . . وعن منزلة مصر فى أفئدة الشباب السودانى النبيل ، فيقول :

مصر دين الشباب ، فى الحضر الرا فه والبدو ، من قرى وبقاع
حبذا الموت فى سبيلك يامصـ ـر لنشء عن الحمى دفاع

وهذا الشعور الملتهب فى نفس الشاعر بوحدة الوادى ، ألهمه روائع الآيات فى النيل ، نهرنا الخالد ، يقول من قصيدته « فى محراب النيل » :

إن عبدنا فيك الجلال فلما نقض حق الذياد عن محرابك
أو نعمنا بك الزمان فلم نبـ ـل بلاء الجدود فى صون غابك

ويشبه حبيبه بالنيل تشبيها جيدا ، فى قصيدته « أنت أم النيل ؟ » فيقول :

أنت يافاتنى أم النيل زخا را ؟ بنفسى كليكما من شبيه
غنّنا السحر من شواطئه الخضـ ـر ، وغن الزمان من ماضيه
واذكره سالفا مجيدا على الدهـ ـر ، عزيزا على كرام بنيه

ويركب الشاعر زورقا يسبح به فى النيل ، فتتقاذفه الأمواج ، حتى ليشرف على الهلاك ، فيقول يخاطب النيل :

رفقا بمن آواك إلهامه   وصاغ فى صدرك وحى الجمال
آماله يانيل . . أحلامه   شبابه الغض الوريف الظلال

ويكرر ذلك فيناجى النيل فى بشر وحب وأمل ، فيقول من قصيدته « الزورق الأخضر » :

لله فى الزورق من غافل   يانيـــل لم يظفر بربان
شراعه الحب . ومجدافه   قلبان طفلان غريران
احفظ صبييه ، وباركهما   للحب يانيل وألحـــانى

وهكذا كان يفرد التيجانى ، الشاعر المؤمن بوحدة الوادى ، والذى أذاب نفسه ألحانا ساحرة ، كان يبعث بها الحياة والأمل فى قلوب المصريين والسودانيين على السواء . . وهذه إحدى خصائص شاعرية التيجانى ، ابن النيل الطموح ، وشاعر الوادى المفرد .

والتيجانى يمثل فكرة جديدة فى الشعر السودانى الحديث ، فقد طفر الشعر فى السودان على يديه من عهد الأناشيد العامية ، والمعارضات الأدبية للقدماء ، إلى طور الاستقلال والذاتية والنضوج الفنى ، وأصبح الشعر السودانى بفضل عبقريته ، تعبيرا واضحا متميزا جميلا ، عن البيئة والمجتمع والشعب ، وحياة الأمة وآمالها وآلامها ، وثورتها فى سبيل الحرية والعزة والكرامة . . وتلك خاصية « ثانية » لشاعرية الشاعر ، ومن ثم انتظم شعره النزعات الوطنية الحرة ، كما انتظم الكثير من أوصاف الطبيعة والاستغراق الذهنى فى مشاهدها ، والتبتل الصوفى فى محرابها ، كما فى قصائده « الخرطوم مدينة الشعر والجمال » ، و « توتى فى الصباح » وتوتى جزيرة مشهورة أمام الخرطوم ، و « من أغوار القلب » وقد وصف فيها استقبال روحه للربيع وجماله الأبدى ، وتحدث فيها كذلك عن حبه وأحبابه .

وللتيجانى شعر وجدانى كثير . يمثل نزعات نفسه ، وخلجات قلبه ، وأعمق مشاعره وهواجسه ، ويتمثل هذا الشعر الوجدانى فى غزله وحبه وفى أحاديثه عن نفسه وآلامه .

أما شعره فى الغزل فتصوره قصائد كثيرة فى ديوانه ، من أجملها « نعيم الحب » ومن « وراء النافذة » ، و « النائم المسحور » ، و « فى الموحى » التى يصف فيها نشوته الروحية بساعات لقاء فى الظلام ، و « القمر المجنون » وقد تحدث فيها عن حبيبة له تسمى « قمرا » ، أحبها وأحبته . ثم تزوجت قسرا سواه ، فدفع بها الحب إلى الجنون ، وقصيدته « جمال وقلوب » . وهى رائعة حقا فى تصوير مشاعر محب وامق . ويقول فيها :

وعبدناك ياجمال وصغنا ... لك من أنفاسنا هياما وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجر ... نا ينابيعها لعينيك قربى
من ترى وزع المفاتن ياحسـ ... ن ، ومن ذا أوحى لنا أن نحبا
من ترى وثن العرى بين مسحو ... رين أسمالها جمالا وقلبا

وأما شعره عن نفسه فكثير متصل فى الديوان ؛ ومنه قصائده الجميلة « الخلوة » وقد وصف فيها طفولته وهو يحفظ القرآن فى المكتب « والمعهد العلمى » ويصور فيها حياته العلمية الأولى فى معهد أم درمان . وبدء ظهور الشك فى تفكيره ، « وقلب » ، وقد تحدث فيها عن قلبه ومنازعه وخطراته العميقة ، « وهوى وفقر » ، وقد تحدث فيها عن فقره وهواه وصنيع دنياه معه ويؤلم الشاعر ضياع عبقريته وأدبه فى وطنه فينظم فى ذلك قصيدته « الأدب الضائع » .

وفى قصيدته « إلى » التى يصور فيها أحاديث نفسه ، يقول :

ويامهيض الجناح كم أمل تبغى ، وكم فى السماء تطلب ؟
تود مصر الزمان ، وهى لما يأمل منها الشباب مطلب

ويكاثره غنى مترف ، فينظم فى ذلك قصيدته (قلب من ذهب) ويقول منها :

أينا يزحم الوجود جناحيـه ، وتمشى الحياة بين ضميره
لى دنيا الفنون والوحى والإلـهام من صدقه ومن مسحوره

وفى قصيدته « نفس » يصف نفسه الحرة الأبية ، فيقول :

سـبحانك اللهم نفـس كلهـا عطف ولين
وتر من النـاى المقـدس من بقـايا المرسلين
من قدس داجية الشعو ر ، وطهر واضحة الجبين
من كل سحر فى الوجـو د ، وسـاحر فى العـالمين
من مهبط الروح العزيـز ، وعنصر الجسم المهين
صيغت فـكـانت حرة أبدا عـلى مر السنـين

وتسود شعره الوجـدانى نزعة واضحة من القلق الفكرى والروحى ، مما يبدو واضحا فى قصيدته « يؤلمنى شكى » ويقول فيها :

أشك يؤلمنى شكى ، وأبحث عن برد اليقين ، فيفنى فيه مجهودى
أشك لا عن رضا منى ، ويقتلنى شكى ، ويذبل من وسواسه عودى

ويقول فى مطلع قصيدته « حيرة » :

بين اثنتين أسير أم أبكى قبس اليقين وجذوة الشك ؟

وللتيجانى شعر وصفى ، من أروعه قصيدته « فجر فى صحراء » وقصيدته (طفل) التى وصف فيها قدرة الله الباهرة فى خلق الإنسان . . ومن أبدع شعر الرثاء فى شعر قصيدته الطويلة (دمعة على طفل) .

ومن أظهر خصائص التيجانى فى شعره ، نزعته الصوفية العميقة ، المشوبة بموسيقى غنائية رائعة . ويصف الشاعر حياته الصوفية الأولى فى صباه ، فى قصيدته (الصبى العابد) التى يقول فيها :

كنت بين الصبا نعمة بإيما ن رضى . وأين عهد صبايا ؟
فسلبت الهدى ، وعولجت فى النو ر ، وقد كنت صادقا فى هدايا
تاه منى الصبا ، ومضت سنون بعد فى منطق كثير القضايا
ومضى الشك باليقين ، فلله فـؤاد تأكلته الرزايا

والشاعر فى قصيدته (الصوفى المعذب) ، مؤمن عميق الإيمان . وحدة الوجود مذهبه وهداية السماء نبراسه ، وفى أسرار الكون تفكيره ويقول منها :

الوجود الحق ما أو سع فى النفس مداه
والسكون المحض ما أو ثق بالروح عراه
كل ما فى الكون يمشى فى حناياه الإله
هـذه النمـلة فى رقـ تها رجع صـداه
هو يحيـا فى حواشيـ ـها ، وتحيا فى ثراه
وهى إن أسلمت الرو ح تلقتها يـداه
لم تمت فيهـا حياة الله إن كنت تراه

ويؤكد الشاعر نزعته إلى التصوف فى قصيدته « قلب الفيلسوف » التى يقـول فى آخرها :

فى موضع السر من دنياى متسع للحق ، أفتأ أرعاه وأرعاه
هنا الحقيقة فى جنبى ، هنا قبس من السموات فى قلبى ، هنا الله

وللتيجانى نزعات فلسفية عميقة فى شعره ، فهو يتخذ من ينابيع الوحى طريقة إلى المعرفة ، ويؤمن بمذهب الشك ، لأنه السبيل إلى الحقيقة ، ويرى فى الدين دافعا للبشرية نحو الخير والمثل العليا ، وأن المعركة الأبدية بين العلم والجهل متصلة ، ونهايتها من غير شك انتصار العلم ، كما يقول فى قصيدته

« اليقظة » التى تحدث فيها عن أحرار الفكر ، وعن العقل الإنسانى وتطلعه إلى كشف المجهول من الحياة .

وبعد ، فإن شعر التيجانى يمثل عقلا نفذ إلى أعماق الوجود والحياة ، وثقافة واسعة استمدها من اطلاعه على كتب التصوف والفلسفة ؛ كما يمثل شخصية أدبية مستقلة فى التفكير والتعبير ، وفى خصائص الشاعرية والبيان ، وفى خيالات الشعر وأسلوبه ووحدة القصيدة فيه .

ولقد قرأ الشاعر طويلا فى مصادر الأدب العربى القديم والحديث على السواء ، قرأ للجاهليين والإسلاميين والمحدثين ، كما قرأ لشوقى وحافظ ومطران ، وشكرى وأبى شادى وناجى والصيرفى ، وعلى محمود طه والهمشرى ، والعقاد ، وشعراء المهجر وسواهم .. ولكنه لم يقلد فى الشعر أحدا ، ولم يعارض فى قصائده شاعرا قديما أو حديثا ، وذلك ينم عن ملكات شعرية مطبوعة ، متصلة بينابيع الإلهام الصادق فى نفسه .

ولقد مهد التيجانى بشعره لمدرسة جديدة فى الشعر السودانى المعاصر ، يمثلها الفيتورى ، وتاج السر ، وجبلى ، وسواهم من الشعراء الشباب ، من أبناء السودان الحر العزيز .

وفى عمر الزهور ، وإشراقة الشباب ، مات شاعرنا عام ١٩٣٧ ، عن خمسة وعشرين عاما ، ولم يترك وراءه سوى مقالات قصيرة فى الأدب والنقد ، كانت تنشرها له المجلات الأدبية فى مصر والسودان ، ولم تجمع بعد فى كتاب ؛ وغير ديوانه الصغير « إشراقة » الذى يحتوى على ست وستين قصيدة ، تمثل أروع الإلهامات الشعرية ، وأجل الآيات المعبرة عن شاعرية موهوبة ، لم يعرف لها مثيل فى تاريخ الشعر السودانى الحديث . وصمتت إلى الأبد هذه القيثارة الساحرة ، بعد أن عزفت الروائع من شعر المجد والعزة والحرية .

النقد المعاصر

ثورة النقد هى دائما التى تنير السبيل أمام النهضة الأدبية ، والنقد الحر النزيه هو الدعامة الأدب الرفيع ، وفى بدء نهضتنا الأدبية ، كان النقد يعاون الأدب والأدب يغذى النقد . فلم يسلم رواد الشعر من أقلام النقاد ، وأصاب شوقيا وحافظا ومطران وأبا شادى وأحمد محرم وعبد الرحمن شكرى ما أصابهم من سخط النقاد وثوراتهم ، ومع ذلك لم يسخط هؤلاء الأعلام ولم يكتئبوا ولم يثوروا ، وإنما حاولوا رفع النهضة الشعرية إلى الأمام بقوة وعزم وتصميم .

وكان العقاد والمازنى ممن ثاروا على مذهب شوقى فى الشعر ، واشتدت الخصومة الأدبية بين الرافعى والعقاد وبين رمزى مفتاح والعقاد كذلك ، وظلت معارك النقد تؤجج الشعلة التى انتقلت إلى الأدباء المصريين جيلا بعد جيل ، ولا ننس زكى مبارك والمعارك الأدبية التى أثارها ، والخصومات الأدبية بين أحمد أمين وزكى مبارك ، وما وجه إلى جميع الشعراء المعاصرين ومن بينهم على محمود طه وناجى وأبو شادى والأسمر ومحمود حسن اسماعيل ومحمود غنيم ومحمد عبد الغنى حسن والصيرفى من نقد

وهذه الخصومات الأدبية التى يحتدم فيها الخلاف بين الأدباء ويحكم فيها النقاد منصفين أو متحيزين ، كانت مواسم خصبة للأدب تدفع الشباب إلى متابعة قضايا الأدب ومشكلاته ودراسته ، وإلى الاهتمام به وإلى موالاة السير فى مواكب الأدب التى هى من طلائع التفكير الحر دائما .

وأحكام السحرتى على شعرائنا المعاصرين ، وهى من الدقة والقوة والعمق بمنزلة رفيعة ، كانت ذات أثر فى توجيه حركة النقد الأدبى فى العشر السنوات الأخيرة من تاريخنا الأدبى . ومنذ عامين احتدمت الخصومة بين الأدباء الشباب والأدباء الشيوخ وفى مقدمتهم طه حسين والعقاد والزيات ، وكثر الحديث عن محنة الأدب وأسبابها ، ولمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس وزكريا الحجاوى ، صوت مدو فى هذه المعركة التى لا تزال فى أعقابها حتى اليوم .

إننا لانزعم أننا وصلنا إلى كل غاياتنا فى الميدان الأدبى ، أو أننا بلغنا الذروة من النهضة الأدبية ، أو أن الشيوخ من الأدباء قد جاءوا لنا بكل جديد فى الأدب والنقد . . ولانزعم كذلك أن صوت الشباب لايستند إلا إلى ثورة العاطفة وحدها .

ولكننا نؤمن أننا لانزال فى أول طريق النهضة التى نريد أن نبلغها فى الأدب ، وأن شيوخ الأدب فى مصر لم يكونوا سوى رواد يحاولون اقتحام الميدان ، فنهم من وقف على الباب ، ومنهم من وقف قبل أن يصل إليه ومنهم من دخل منه مبهورا مثقل الخطا كليل الأعصاب ، أما الشباب فقد دخلوا وراء الشيوخ ، ولكنهم نظروا إلى ما أمامهم ووراءهم من أسرار ، ولايزالون ينظرون وفى أنفسهم حيرة . وعلى شفاههم لهفة . وقد لمسنا ظاهرة غريبة فى جونا الأدبى هى سخرية الأدباء وتعاليهم وكبريائهم بل غرورهم ، وخاصة طبقة الشباب الذين يثورون ويسخطون على كلمة النقد التى تقال ، وهذه أول بوادر الضعف الذى نرجو أن تبرأ منه نهضتنا الأدبية الحاضرة .

فالميدان الأدبى تعاون وإنصاف وكفاح بين الأباء والشعراء والنقاد ، وهذه الأخلاق هى وحدها التى تنهض بالأدب ، وترفع منزلته فى ضجيج الحياة وماديتها .

والمعول فى كفاحنا الأدبى على الناقد الحر الحصيف ، وعلى تعاون شتى هيئات الأدب فى خلق أدب حر ، يعمل على توجيه الشباب نحو مثلنا العليا وأهدافنا السامية .

أديب من الحجاز

الأدب التمثيلى فن جديد نشأ فى العربية فى العصر الحديث ، بتأثير بواعث اجتماعية وأدبية ، واتصالنا بالادب الغربى والفكر الأوربى ، وقد عرف اليونان والرومان والقدماء الأدب التمثيلى ، وكتبوا روائع التمثيليات ، ونبغ منهم كثير من كتاب التمثيلية الخالدين ، وعنهم عرف فن التمثيلية والمسرحية فى أوربا فى بدء عصر النهضة ، وأصبح له مكانته وخطرة فى الآداب العالمية المعاصرة .

ومن أقدم ماعرف المسرح فى مصر من التمثيليات رواية عايدة التى ترجمت إلى العربية ، ومثلت فى حفلة افتتاح قناة السويس فى الأوبرا المصرية فى عهد إسماعيل .

والأدب التمثيلى اليوم يغذى المسرح والسينما فى البلاد العربية بالعديد من الإنتاج ، ويؤثر فى عقول الناس وأفكارهم تأثيرا كبيرا ، ومن كتاب التمثيلية لفيف من أبناء العربية نبغوا فيها ، ومرنوا على كتابة فصولها وحوارهـا .

والجامدون فى الأدب يضيقون ذرعا حتى اليوم بفنى التمثيلية والقصة ، ويعتبرونهما كفرا بتراثنا الأدبى القديم ، ذى العناصر الفنية الواضحة المتميزة .

ولمسرحيات شوقى وأحمد زكى أبى شادى وعزيز أباظة الشعرية مكانتها فى أدبنا التمثيلى الحديث ، وكان شوقى يتخذ من التاريخ مادة

مسرحياته ، وتابعه في ذلك شاعرنا عزيز أباظة ، أما أبو شادي فكان يجعل من التاريخ والمجتمع مادة وموضوع ما يكتب من مسرحيات ، ومنها : الآلهة ، وأردشير وإحسان ، وبنت الصحراء ، وأخناتون ، والزباء ، وسواها من عديد التمثيليات التي سبق بها أبو شادي أدباء العروبة ، وكان له بها شرف وضع الأساس في الدراما والأوبرا العربية ، وقد والى أبو شادي بعد هجرته إلى أمريكا عام ١٩٤٦ تأليف كثير من التمثيليات ، التي نشر بعضها في كتاب « من نافذة التاريخ » الذي نشرته المقتطف عام ١٩٥٢ في جزءين ، ولا تزال بقية أجزائه مخطوطة حتى اليوم . . ومن أشهر كتاب التمثيلية اليوم توفيق الحكيم .

وأغلب التمثيليات التي تكتب اليوم تتخذ من الموضوعات التافهة الفارغة مادة لها ، وتغفل صميم مشكلاتنا الاجتماعية والقومية والعقلية ، فلا تتحدث فيها ، وتتخذ من اهتمام الكثير من الطبقات المحرومة الجاهلة بالموضوع الجنسي ذريعة لها إلى ما تصطنعه من مذهب فني في الكتابة التمثيلية ، وفيما تحرص عليه من إثارة الشهوات ، وتبادل قبلات الحب والهيام ، وقد أخذ أبو شادي منذ حين يعرض تاريخنا الفكري المجيد ، وحياة فلاسفتنا ومفكرينا ، في روائع من تمثيلياته البارعة ، التي تعد خطوة تقدمية لا مثيل لها في أدبنا التمثيلي المعاصر .

وهذه المسرحية الرمزية التي تقتصر على فصل واحد ، وتتوالى مشاهدها في قوة وروعة ، تستجيب لنداء الحياة ، وتمقت ترف الفن للفن ، مؤمنة بمذهب الفن للحياة ، مبشرة بأفكار تقدمية جديدة ماهدة في حياة العروبة والعرب الميامين ، وكاتبها يلون أشخاص المسرحية بألوان عجيبة ، ويحافظ على هذه الألوان من بدء مسرحيته إلى نهايتها ، ويجعل لكل منهم شخصية

متميزة ، وأفكارا خاصة ، وسمة يعرف بها وحده دون غيره من الناس ، وتدور مشاهد المسرحيه فى قاعة فخمة يدور فيها اجتماع حافل ، يشهده كثيرون ممن يمثلون أفكارا متناقضة ، بعضها يؤيد الرجعية والجمود ، وبعضها ينادى بالتقدم والعزة والكرامة للناس والمجتمع والوطن ، ويكثر بينهم الحوار والجدل والنقاش والخصومة ، إلى نهاية المسرحية بأحداثها ، ومشاهدها المثيرة المؤثرة . وفى المسرحية أشخاص يمثلون أطراف الشخصيات، فهذا سالم يقف مع البور جوازيين مع حرص شديد على السجع ، وتأييد للانتكاس ، وهذا ميمون يسمع ولا جواب له على ما يسمع إلا : موافقون. موافقون . يقف مع المادية الطاغية الممثلة فى شخوصها ، وهذا نضال يدعو إلى المبادىء والقيم الجديدة فى ثقة وإيمان وأمل ، إلى غير ذلك من الأشخاص ومواقفهم الجميلة البارعة .

والأستاذ عبد الله عبد الجبار من كتابنا التقدميين ، المؤمنين بالتطور ، وبوجوب مسايرة المجتمع والناس لأفكار الحضارة ، وبالواقعية الحلوة فى الأدب ، وهو يبشر بمثالية جديدة فى مسرحياته الجميلة ، التى أصدر منها من قبل « الشم سحتوت » ، و « أمى » .. وهذه ثالثة مسرحياته التى نهنئه، نهنىء أنفسنا وبها .

شاعر من الكويت

ديوان « الأشواق » بما يحتوى عليه من قصائد وجدانية ووصفية وقومية ووطنية — من أروع الدواوين التي نظمها الشاعر محمود شوقي الأيوبي ، بل إنه من أجمل ما ظهر في الشعر الكويتي المعاصر من آثار .

وهو شاهد على شاعرية الأيوبي المتدفقة الثرة العميقة الجذور والأسباب ، التي تمد الشاعر بالإلهام والخيال والصور الشعرية والتجربة الفنية .

وفي الديوان قصائد عديدة تمثل التطور في الشعر الكويتي المعاصر ، والنزعة الحرة في الفكر العربي في الكويت ، ومنها : في موكب الحرية ، والبدوي ، وأمواج الفجر ، والناي المحطم ، وأين النشيد ؛ ووراء الحق ، والفأل الحزين التي يصف فيها رحلاته وهجراته وحياته مدة طويلة شقيا بآلام الغربة ؛ ويابني وطني ؛ والينابيع السوداء . وهذه القصائد وما يماثلها من شعره في الديوان صورة قوية واضحة للأيوبي الشاعر تمثله أصدق التمثيل ؛ تمثله في اغترابه وهجراته وتشريده وبعده عن وطنه عشرين عاما ، وتمثله في ثوراته الفكرية والوطنية الحرة الجريئة ؛ وتمثله كذلك حين يقف أمام الطبيعة والحضارة في بلاد العروبة يتأملها ، ويستوحيها الخيال والشاعرية والإبداع .

ولم يقف الأيوبي عند غرض واحد يقصر عليه نظمه وشعره ، وإنما جال في كل فن ، وقال في كل غرض : من وصف وفخر ورثاء ، وحكمة وسخرية ونقد واجتماع ، ومن شعر وجداني ، وقومي ، وإنساني ؛ حيث تسود شعره النزعة القومية وروح التحرر من الأغلال والقيود ، والصوفية العميقة الحالمة .

ونحن لانقول إن شعر الديوان مثل كامل للشعر العربي المتحرر ، وإنما نقول إنه مثل كامل للتحرر في الشعر الكويتي المعاصر ، مع تأثر بالبيئة ، ومجاراة للعصر ووصف لمشاهد الحياة في الكويت العربية ، وقصيدة « الينابيع السوداء » جديدة كل الجدة في التحدث عن الذهب الأسود وينابيع البترول الغنية في الكويت ، وهي لوحة فنية مستمدة من واقع الحياة .

ورابطة الأدب الحديث ـ وهي تحتفي بانتاج الشعراء العرب المعاصرين وتقدرهم حق قدرهم ، وتضع يدها في أيديهم في عزم وقوة ومثابرة وتصميم على الجهاد من أجل الفكر والثقافة ، وفي سبيل التجديد والتحرر في الشعر ، تحي شاعر الكويت محمود شوقي الأيوبي تحية الإخاء والتقدير والحب والأمل ، وتهتف من أعماق قلبها محيية هذا الإنتاج الأدبي الجميل الرائع ، تهنىء الأدباء والأدب العربي بظهور هذا الديوان الجديد ، الذي نرجو له كل تقدير وذيوع في العالم العربي ، وفي كل مكان ؛ ونتمنى أن يحتل الأيوبي مكانه اللائق به في الكويت العزيزة الشقيقة .

شاعرة من مصر

— ١ —

كانت تقيم الشاعرة المصرية المهاجرة صفية أحمد زكي أبو شادي في واشنطون ، مع والدها الشاعر المصري الكبير الدكتور أحمد زكي أبو شادي صاحب الآثار الأدبية العديدة المرموقة .

وقد تلقت ثقافتها في مصر قبل هجرة والدها إلى أمريكا في ١٦ إبريل

عام ١٩٤٦ ، هذه الهجرة التي كانت أكبر سفارة أدبية وفكرية لمصر في عصرنا الراهن ، والتي كان من أظهر أسبابها آراء أبي شادي التقدمية الرائدة في الأدب والفكر والاجتماع والسياسة ، التي ذعر منها حكام مصر في ذلك العهد البائد البغيض ، ثم ما كان يسود جو مصر الفكري من خنق للحريات . واضطهاد للفكر ، ومحاربة لدعاة النهضة والتقدم والتجديد والإصلاح ، وقد كان القصر الملكي يهتز رعبا من آراء أبي شادي التي كان يبثها في أنصاره وحوارييه ، وكانت الأحزاب البائدة ترتعد فرقا من تنديد أبي شادي بدعاة الرجعية السياسية المقيتة التي كانت تمثلها هذه الأحزاب ، وكان الإقطاعيون يقابلون دعوة أبي شادي إلى العدالة الاجتماعية وتوزيع الأرض على الفلاحين وإلغاء الألقاب بالنقمة والبغضاء . . وكان من البدهي أن تتأثر حياة الشاعر بكل ذلك تأثرا كبيرا ، وأن يلقى من الاضطهاد والعنت في بيئته ماينوء بالعصبة أولى القوة ، وأن تنذره الحكومة بالحرمان إذا فكر أو تحدث أو كتب أو نادى برأي . . وفي هذه المحنة توفيت زوجه الحنون ، وبدأ أمام عينيه الظلام القاتم المتجمع من كل أفق ، فهاجر الشاعر ، ومعه أبناؤه ، و « صفية » شاعرتنا وصاحبة ديوان « الأغنية الخالدة » من بينهم ، وحطوا الرحال في نيويورك حينا من الزمان .

— ٢ —

و (صفية) شاعرتنا تنحدر من بيت عريق في الأدب والشعر والنبل ، فوالدها شاعر مرموق ، وجدها « محمد أبو شادي بك » كان خطيبا مفوها وسياسيا ذائع الشهرة . وأديبا وكاتبا وشاعرا بليغا ، وقد حمل لواء الجهاد مع سعد زغلول حتى توفي عام ١٩٢٥ ، وجدتها لأبيها كذلك

كانت شاعرة ، وخال والدها كذلك شاعر مشهور . هو المرحوم مصطفى نجيب ، الذى توفى بعد مشرق القرن العشرين بقليل ؛ ولاشك أن هذا التراث الفكرى والأدبى قد انتقل إلى ذهن الشاعرة ، وتردد صداه فى عقلها وروحها ، منذ أن كانت طفلة صغيرة .

وعنصر الخيال الطلق البعيد الذى يمثله هذا الديوان ، والذى هو من أهم سمات شاعرية الشاعرة ، لعله كذلك ينبع من معين هذه الثقافة الادبية الغربية ، وخاصة الإنجليزية ، التى تثقفت بها الشاعرة من طفولتها على يدى والدتها . وقد كانت تنتمى إلى عنصر انجليزى عريق ، ثم فى المدارس التى التحقت بها فى الاسكندرية حيث كانت تقيم مع والدها قبل هجرته إلى أمريـــكا ، وهو أستاذ فى كلية طب جامعة الاسكندرية ، ووكيلها .

— ٣ —

وجانب كبير من قصائد هذا الديوان قد كتبته الشاعرة فى مصر قبل الهجرة ، والجانب الآخر كتبته وهى مهاجرة فى أمريكا . ومن ثم فإن هذه القصائد الفنية تمثل كثيرا من خصائص الثقافات الادبية العالمية العريقة ، مما يجعل لهذا الديوان منزلته الخطيرة فى إنتاجنا الأدبى المعاصر ، لأنه صورة حية من هذه الثقافات الأدبية المنوعة التى تلقتها الشاعرة فى بيئات عديدة بعضها شرقى وبعضها غربى . ومن النتائج المترتبة على ذلك ما يمتاز به الديوان من انطلاق الخيال ، وتحرر الفكر ، وسعة أفق العقل الادبى ، والصوفية الحالمة العميقة النافذة إلى أعماق الحياة والطبيعة والوجود ، ثم امتزاج الروح الشرقى بالروح الأوربى .

— ٤ —

والديوان كله قصائد من الشعر المنثور . وهذا اللون من الشعر أكثر منه جبران ومى وغيرهما من شعرائنا وكتابنا المعاصرين ، وأساسه العناية بالفكرة والخيال والروح والعاطفة والموسيقى ، دون نظر إلى القافية ، ودون التفات إلى أوزان الشعر وبحوره . . . والنقاد العرب يقفون من هذا اللون من الشعور والشعر مواقف مختلفة .

ففريق يرون أن الشعر هو الكلام الفنى الجميل ، المحلق فى آفاق الخيال ، والضارب فى أعماق الوجدان ، والممثل لخلجات الشعور ، ونبضات القلوب ، ومن ثم فهم يذهبون إلى أن كل كلام - يغلب عليه التأنق والجمال والخيال ويخاطب العاطفة والوجدان والشعور - هو شعر ؛ ويستشهدون على ذلك بكلام حسان بن ثابت شاعر النبوة ، حين سمع من ابنه وصفا أنيقا منثورا لنحلة لسعته ، فقال : شعر ورب الكعبة . ولما قال بشار أبياته المشهورة فى الشورى وسداد مشاورة الأصدقاء ، أعجب بها الناس ، فسئل بشار عن ذلك ، فعلل إعجابه بحكمة الشورى بكلام بليغ منثور ، فقال النقاد أنت فى نثرك أشعر منك فى شعرك . وفى العصر الحديث ذهب بعض النقاد إلى عد كل كلام منثور بليغ يغلب عليه الخيال شعرا ، وإن لم يشتمل على وزن ولا قافية ، وأكثر من هذا اللون من الشعر جبران وسواه .

وفريق آخرون يقيدون الشعر بالوزن ، وسواهم يقيدونه بالقافية والوزن جميعا ، وهو رأى الكثير من النقاد العرب القدامى .

ومهما كان فإن حاجتنا إلى التجديد الأدبى ، وإيماننا بوجوب مسايرة الأدب للحياة ، تقتضى منا أن نؤمن بأن كل إنتاج فنى بليغ موهوب لا يتنافى مع الشعر الكلاسيكى المقيد بقيود الوزن والقافية والموسيقى ، بأية حال من الأحوال .

— ٥ —

ويمثل هذا الديوان صورا أنيقة من نظرة الشاعرة إلى الطبيعة والحياة والجمال الإنسانى الثرى بالألوان ، ويتحدث عن عواطف الشاعرة وآمالها ، وأحزانها ومسراتها ، حديثا عميقا خصبا مؤثرا . . . فبينما تجدها تقول فى قصيدتها « يأس » : (أقضى الأيام تائهة فى بيداء من الظلام ، والطرقات المتضاربة كلها أعشاب شائكة ، فإذا حسبت الأمل أمامى يومىء إلى ، وجدته السراب القاسى يخدعنى) ، وتصور كفاحها الشاق الطويل وهى تناضل الحياة فى قصيدتها (الزورق الصغير) ، وفى قصيدتها الأخرى (وسط المحيط) ، وتردد (الأغنية الخالدة) فى صدى مدو ، وفى حزن عميق . . إذا هى تناجى الأمل والإيمان فى قصيدتها (فى عينيك الدموع) ، وفى قصيدتها الأخيرة (فيم تفكرين ؟) وتندمج فى الطبيعة فرحة شادية فى قصائد عديدة من الديوان مشرقة بالأصالة والطلاقة الفنية والتحرر والموهبة ، وتصف مشاهد فكاهية وصورا ضاحكة من عمل المنزل وجهاد الفتاة فيه ، وتتحدث عن المثل العليا للحياة ، وعن آثار من التفكير الراهن فى مستقبل الإنسان على الأرض . . إلى غير ذلك من الألحان العذاب ، والأغانى الحلوة ، والأناشيد الجميلة المؤثرة ، ذات الطابع الفنى المتميز .

— ٦ —

والرمزية بظلالها وألوانها الفنية ، المنطلقة فى سبحات الخيال ، وأحلام العقل ، ومشاهد الوجود ، وأعماق الطبيعة ، وأسرار النفس ، غالبة على هذا الديوان ، المشبع بفهم حقيق للأدب ، وإيمان عميق بالتجديد .

ويتميز حديث الشاعرة فى الديوان بالصدق والبساطة والجمال . . ولاشك أن هذه العناصر هى أهم سمات الأدب الجديد الذى نؤمن به وندعو إليه .

ومن ثم فإنه يمكننا أن نقول : إن الديوان ـ بما يشتمل عليه من آثار وسمات فنية متعددة ـ جديد كل الجدة ، فليس فيه تقليد لمذهب ، ولا لشاعر ولا لشعر بعينه . . ولذلك تزداد أهميته بالنسبة لنا ـ نحن الأدباء والشعراء والنقاد إلى حد بعيد .

— ٧ —

والأدب النسوى المعاصر فى مصر والبلاد العربية قليل ضئيل بالنسبة للآثار الأدبية الحديثة ، ومن أظهر الشاعرات المعاصرات ، فدوى طوقان ونازك الملائكة ، وجميلة العلايلى وجليلة رضا ، ومن أظهر أديباتنا المعاصرات مى وبنت الشاطىء والقلماوى ودعد الكيالى .

ولا شك أن الأدب النسوى المعاصر ، وخاصة الشعر ، سيكسب غنما كبيرا ، حينما يضاف إلى درارية المتألقة شاعرتنا المصرية المهاجرة « صفية أحمد زكى أبو شادى » ، صاحبة هذا الديوان الجديد « الأغنية الخالدة » ، التى تعيش للأدب ، وتحيا بالأدب ، وإن لم تتخذه مهنة وتجارة ، ولم تمش به للدعاية بين الناس .

— ٨ —

ولقد امتلكتنى نشوة عجيبة عندما وصلنى الديوان بالطائرة من المرحوم والد شاعرتنا المصرية ، وقرأت بعض قصائده . . ومن ثم رأيت أن يطبع الديوان على نفقتى الخاصة ، وبرعاية « رابطة الأدب الحديث » التى تحمل من صميم رسالتها الكشف عن المواهب ، وتشجيع الموهوبين ، ونشر آثار الشعراء والأدباء المعاصرين . .

عمر ابن أبى ربيعة

شاعر الغزل القصصى

عمر بن أبى ربيعة شاعر الحجاز الكبير فى القرن الأول للهجرة ، أطرف شخصية أدبية فى الأدب العربى القديم ، وحياته وشعره صورة فنية متميزة للحياة العربية فى بيئة الحجاز فى أزهى عصوره الإسلامية .

وما أجمل الحديث عن عمر وأعذبه ، عمر شاعر الغزل القصصى ، وزعيم مدرسة الغزليين فى هذا العهد ، وسلالة الأشراف من قريش ، والذى عاش لايهجو ولا يمدح وإنما ينظم فى فنه الشعرى الجديد قصائده وآياته ، الجديد حقا فى الشعر العربى ، الذى كان له فضل ابتداعه ، والحياة من أجله ، والدعوة إليه ، ومن ثم نال شعره اهتمام الأدباء والنقاد والدارسين فى القديم والحديث اهتماما لم ينله الكثير من الشعراء الأقدمين .

وإذا كان حديث الباحثين عن عمر موضع عناية الأدباء واهتمام القراء ، فإن الحديث عن عمر من شاعر أديب حجازى معاصر يجعل لبحثه أهمية كبيرة فوق أهمية الموضوع نفسه .

ومن ثم فرحت فرحا كثيرا عندما دعوت الشاعر الحجازى المجدد الاستاذ إبراهيم هاشم الفلالى ليحاضرنا ، عن عمر ، فى حلقات رابطة الأدب الحديث فى القاهرة ، وفرحت أكثر من فرحى الأول عندما قدم لى الكتاب فى آخر مراحل طبعه لأسجل ماوجه إلى بحثه من نقد ليلة إلقائه فى ندوة الرابطة الأدبية ، وإنى لأضع بحث شاعرنا الفلالى عن شاعر الحجاز الخالد فى صدر مكتبة عمر الأدبية ، لأنه يكتب وهو أعرف الناس ببيئة الحجاز الأدبية والفكرية والاجتماعية ، وبنفسية شاعر كان يعيش فى هذه البيئة ، ويتأثر بها ، ويتجاوب معها .

ومن هذه الزاوية اندفع الفلالى الشاعر فى صدر كتابه يصور منهجه فى كتابه للقراء: «ستجد (١) أيها القارىء العربى المسلم قطعة من تاريخنا أقدمها لك فى محاضرة ألقيت فى رابطة الأدب الحديث بالقاهرة، وسوف تجد فى تضاعيف الحديث عن هذا الشاعر الحجازى تطورات المجتمع فى فترة من تاريخ موطننا — الحجاز — الذى قام بنشر الدعوة الإسلامية، وسوف ترى كيف تطورت حياة المجتمع الحجازى، ولعلك تجد شبها بين تطوره فى ذلك العهد وتطوره فى العهد الحاضر، ولعلك أيضا تلمس كيف استطاعت العبقرية الحجازية قديماً أن تستفيد وتفيد من ذلك التطور، فتسهم فى بناء الحضارة من الناحية الفنية، ومن الناحية الفقهية، وكيف ترك تفوق آبائك الحجازيين الفنى فى اللغة والغناء والموسيقى وابتكارهم فى هذه الفنون وسبقهم الشعوب العربية كلها أثراً خالدا مازال عصرنا متأثراً به تأثرا غير منكور».

ويلتفت الفلالى الشاعر إلى أهمية بحثه عن عمر، فيقول بعد قليل من كلامه الأول: «ولعلك واجد فى محاضرتى شيئا لم تجده فيما قرأته عن عمر فى كل ما كتب عنه (١)».

ومن ثم تحدث المؤلف عن عصر عمر ومجتمعه، والأسباب المختلفة التى أدت لذيوع موجة الغناء والمرح فى الحجاز فى عصر عمر. من سياسية واجتماعية وسوى ذلك، ثم تحدث عن عشيرة عمر وأسرته، وعن مولده ونشأته، بيد أن المؤلف يوجز إيجازا شديدا فى حديثه عن نشأة عمر، وما كان أحراه بأن يطيل كل الإطالة، وأن يفيدنا الفائدة التى لا تترقب مثلها إلا من مثل شاعرنا الفلالى فى جلده على البحث وفى ذكائه وألمعيته. ويتحدث المؤلف عن صداقات عمر وصحبه، وانتقاله إلى مكة، ويدفع عن عمر ما يلصقه به

(١) ص ٨ وما بعدها.

(١) ص ١٢.

الجاهلون من الكتاب ، فيذكر لنا أن عمر « قد عرف لنفسه مكانتها ، فلم يتبذل فى شعره ، ولم يرنا لحشا فى الكثيرة الكاثرة مما نظم (١) . .

وينتهى المؤلف الشاعر الفلالى من هذه الجوانب كلها ، ليبتدىء حديثا عذبا جميلا عن شعر عمر ، وما أدق وصفه لشعره بأنه كان « مذكرات يومية يسجل فيها حياته (٢) الخاصة » ، وما أطرف الجوانب الغامضة التى كشف عنها الفلالى فى كتابه من حياة عمر وشخصيته وشاعريته وغزله وآراء النقاد فيه ، القدامى والمحدثين منهم ، ومكانته فى الشعر الحجازى ، وحكمه الكثيرة فى شعره . ويتكلم على عمر الإنسان الفنان وعن خلقه وأين مات ؟ وعلى غير ذلك من شتى الموضوعات .

ومع ذلك فإن حديث الفلالى عن شاعرية عمر حديث موجز يلائم طبيعة الموقف والظروف التى كتب بتأثيرها محاضرته .

ولكنى مع هذا الإيجاز الشديد الذى لجأ إليه المؤلف ، أعتقد أن قارىء هذا الكتاب الصغير الحجم ، يخرج بصورة عن شخصية عمر لا يخرج بها حينما يقرأ كل ما كتبه الأدباء والدارسون عن عمر وحياته .

وهناك آراء متعددة فى الكتاب لها سمتها من الطرافة وروعة التصوير .

ومع ذلك فإنى أزعم أن الفلالى لم يفرغ بعد من عمر ، وأن عليه واجبا أدبيا كبيرا لتراثنا الخالد من الأدب العربى ، وهو أن يعاود الكتابة عن عمر وشخصيته وشعره ، عندما تسمح له أحواله الأدبية والفكرية بذلك .

إنى أهنىء الفلالى بدراسته ، وأهنىء الأدب العربى بهذا الكتاب الصغير الحجم ، الكبير فى طرافته وروعته وقيمته .

---

(١) ص ٤٨ .
(٢) ص ٥٢

انتهى الكتـــاب

فهرست

ظهر حديثاً للمؤلف :

١ — قصة الأدب فى مصر
٢ — قصة الأدب فى الأندلس
٣ — فصول فى الأدب

تحت الطبع للمؤلف كتاب :

نداء الحياة